روايات أحلام

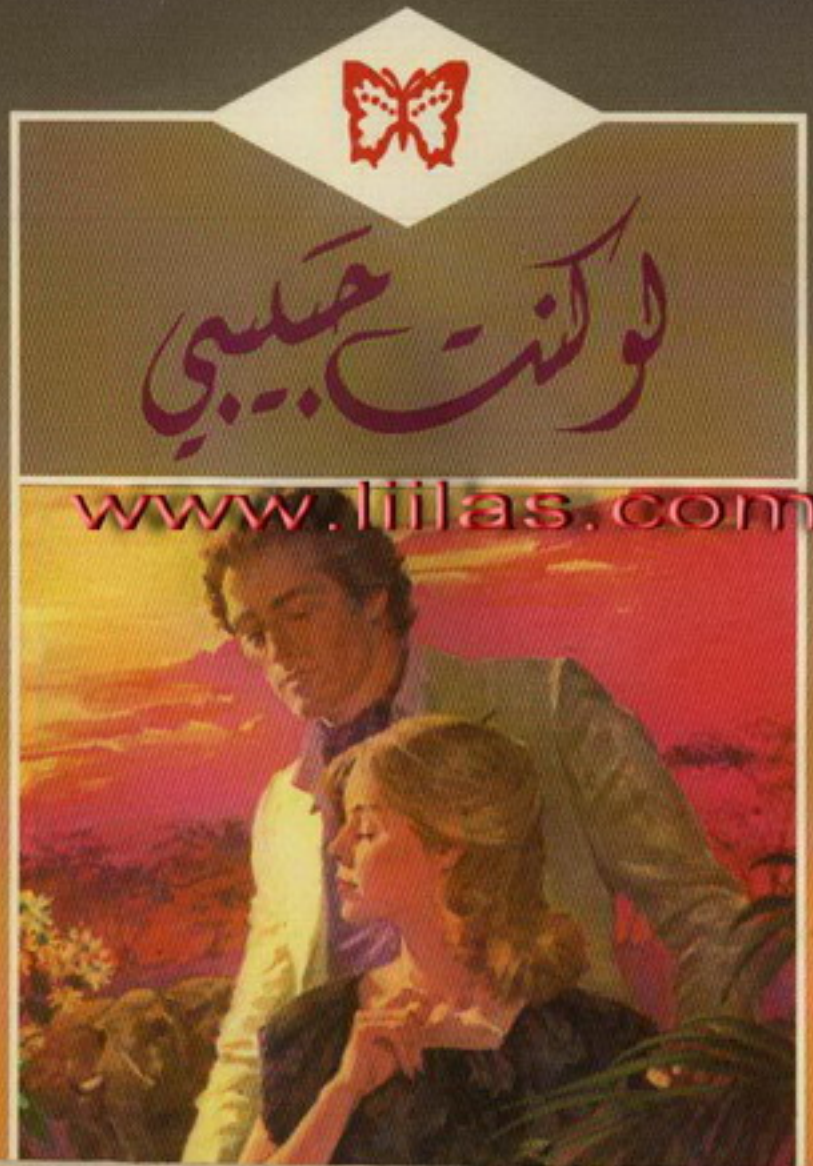

www.liilas.com (doodeal7aloo)

٨٨

روايات أحلام

لو كنت حبيبي

هل هذا هو الرجل الذي تزوجته؟

بالنسبة لمارسي نعم، فما زال بلايك الحبيب الوحيد الذي يخفق له قلبها، ولن ترضى بغيره شريكاً للعمر.

لكن بلايك يعيش الآن في عالم آخر، قاس، يشاركه فيه ظلام أبدي. [illegible] لو أطيع [illegible] بيديّ»، فهل يستطيع حبها أن يقاوم هذا الحقد؟ وماذا ينفعها كل عطائها لرجل ليس عنده ما يعطيها إياه إلا تذكرة سفر كي ترحل عنه إلى الأبد؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١.٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

لو كنت حبيبي

دار الفراشة

روايات احلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة
والنشر والتوزيع ش.م.م.
ص.ب: ٨٢٥٤/١١ - بيروت - لبنان.

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم
جميع حقوق الطباعة والنشر والاقتباس والتأليف محفوظة للشركة.
التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

تنفيذ وطباعة مؤسسة دلتا للطباعة والنشر
حارة حريك ت: ٨٢٣١١٨ - ٨٢٨٧١٥٨/٠٣

١ - سجين الظلام

- أيها الدكتور هارمان.. أتقول إن عمى زوجي دائم؟

قاومت مارسي سايمور لتسترد رباطة جأشها، فقد تمسكت طوال الرحلة الليلية من لندن إلى نايروبي بأمل أن تكون مؤقتة.

رد الطبيب بهدوء، ليطمس بصيص النور الذي رفض أن ينطفىء حتى الآن.

- أخشى أن هذا الواقع..

مال إلى الأمام في كرسيه، وأخذ يشرح لها:

- حين انهار سقف المنجم اخترقت شظية معدنية جمجمة زوجك.. وأنا مقتنع بأن العصب في جهاز البصر مصاب، فهو لا يميز الضوء إطلاقاً.. أنا آسف.

هزت رأسها فتناثر الشعر الأسود البرّاق حول كتفيها:

- لا أصدق. أيعرف بلايك أن عماه دائم؟

- أجل.. لقد أصرَّ على معرفة الحقيقة حالما أن استعاد وعيه.

- لقد مر أسبوعان على الحادثة ولا أفهم لماذا لم يتصل أحد بي. لو أخطرني أحدهم لهرعت إلى نيروبي على أول طائرة. لا أكاد أقبل فكرة بقائه في المستشفى هذه المدة كلها وأنا جاهلة بما حدث.

رد الطبيب:

- اعتقدت أنه على اتصال مع عائلته.. ولكنني لمَّا علمت قبل ليلة

www.liilas.com (doode al 7aloo)

البارحة أنه لم يتلق زيارات إلا من بعض موظفيه في شركة مناجم سايمور سمحت لنفسي بالاتصال بمكتبه لأحصل على رقم هاتف أحد أقاربه . . فقيل لي إن والده السيد وايلي هو في لندن، فاتصلت به فوراً.

عبست مارسي: «ألم يأت بلايك على ذكري قط؟ لا أفهم».

تفرس الطبيب في وجهها البيضاوي الدقيق التكاوين، وقد بان على وجهه الانزعاج بسبب الاضطراب البادي في عينيها.

ـ لم أكن أعلم حتى لحظة ظهورك في العنبر منذ دقائق أن السيد سايمور متزوج. هذا عدا أن يكون متزوجاً من امرأة جميلة مثلك. . ظل زواجك طي الكتمان لأنه لم يكن أي شخص في شركته على علم به. . منذ متى تزوجتما؟

سحبت مارسي أنفاسها بحدة:

ـ منذ ثلاثة أسابيع فقد اضطر بلايك إلى العودة بعد مراسيم الزفاف فوراً من أجل أمر طارىء في أحد المناجم. وقد قرر أن أبقى في لندن حتى عودته ظناً منه أن المسألة لن تطول إلا أياماً قليلة لنتابع شهر عسلنا. . ولم أتلق رسالة منه منذ ذلك الحين.

ارتجف صوتها وهي تردف:

ـ قال إنه قاصد منطقة لا يمكن الوصول إليها من الأراضي الجبلية وإنه سيتصل بي في أول فرصة سانحة. كان اتصالك بوالده الاتصال الوحيد الذي تلقيناه.

اجتاحت وجهها موجة ألم جديدة لأنها شعرت بجرح عميق بسبب كتمان بلايك أمر زواجهما.

ابتسم الطبيب بلطف: ليتك تعلمين يا سيدتي مدى سروري بوجودك. أظنك قدمت لي قطعة مفقودة من أحجية.

ـ أية أحجية أيها الطبيب هارمان؟

ـ زوجك رجل متكبر. . ولكن رغبته الشرسة في الاستقلال أمام

خسارته أقلقتني. وبعدما رأيتك الآن بتّ أفهمه.

سألته بإلحاح، وعيناها مثبتتان على عينيه: «ماذا تعني؟».

وضع يديه خلف رأسه: «لو كان لي عروس جميلة تنتظرني وفقدت بصري لكان أول ما فكرت فيه الانتحار».

صاحت: «أتقول إن بلايك يرفض العيش؟ ألهذا امتنع عن الاتصال بي؟».

ـ أبداً. . بل ما فعله هو الانزواء إذ لم يستطع تحمل فكرة الاعتماد على شخص آخر، خاصة أنت. إنه ذكي وناجح وهو معتاد على تحمل مسؤولياته كاملة. لقد بنى لنفسه مستقبلاً باهراً في عالم المناجم في كينيا. . والأهم من هذا أنه تزوج من امرأة يريد أن يكون بالنسبة لها كل شيء في حياتها ثم فجأة يصدمه عماه فيشعر بالعجز عن تقديم الحماية لك كما يشعر بالعجز لأنه لن يكون معيلك. . حبيبك. .

تهدج صوتها انفعالاً وهي تقاطعه:

ـ بلايك هو كل ما تذكر بالنسبة لي سواء أكان أعمى أم مبصراً. ظننتك اتصلت بوالده لعجزك عن الوصول إليّ. . ولم أكن أعرف أن بلايك لم. . أهذه هي ردة فعل معظم الناس؟ أيديرون ظهورهم لمن يحبهم؟

أشاح عينيه عنها، ومرر إبهامه على حافة الملف أمامه. .

ـ يشعر المصاب بالإحباط في هذه الحالة ولكن ردة الفعل تختلف بين شخص وآخر ولكنه كمعظم الرجال يريد أن يكون الزوج الكامل. . وها هو العمى المجهول بالنسبة له، الشيء الخارج من سيطرته. . إنه خائف.

اغرورقت الدموع في عينيها: «لا أتصور بلايك يخاف من شيء».

ارتفع حاجبه: «ولن يستطيع. .».

أجفلتها معاني الكلمات. . . إنه الليل الدامس بالنسبة لبلايك. .

وهي لا تستطيع فهم ما سيكون عليه. والتاع قلبها من أجله وهذا ما زادها أسفاً وحزناً.

رفعت رأسها بجهد: «أهو متألم؟».

ـ إنه لا يشكو إلا من صداع خفيف بين الفينة والأخرى وفي الواقع أراني قلقاً لأنه يلوم نفسه على الحادث الذي تسبّب بموت شخصين.

شهقت مارسي بصوت منخفض.. لم تكن تعرف هذا بل لم تفكر إلا في زوجها.

ـ لم أرغب في إخراجه من المستشفى قبل أن يأتي صديق حميم له أو فرد من أفراد العائلة ليرعاه، فهو حتى الآن رفض أية مساعدة كما رفض معظم الزيارات. وكما شرحت لك، اتصلت بوالده لأرى ماذا يستطيع أن يفعل. وأستطيع القول، إن حضورك طمأن نفسي خاصة بعد إصراره على ترك المستشفى اليوم.. أعرف أنه سيرفضك ولكنه سيحتاج إليك بيأس.. فهل أنت مستعدة؟

ونظر إليها بلهفة!

سحبت مارسي نفساً عميقاً، ثم رفعت ذقنها قليلاً:

ـ أنا بحاجة إليه أكثر من حاجته إلي. أنا زوجته التي لها حق العيش معه بكل ما في الكلمة من معنى.

غمرت ابتسامة ارتياح وجه الطبيب:

ـ أحسنت صنعاً.. إنه رجل محظوظ بك وآمل أن يدرك هذا سريعاً.

بعثت كلمات الطبيب الخوف إلى قلب مارسي.. لقد بدأ بلايك ببناء الحواجز منذ أسبوعين.. وكان أول حاجز رفضه الاتصال بها..

قالت بتصميم، وهي تقف: «أود رؤيته حالاً. وأشكر لك إهدارك وقتك الثمين معي واهتمامك ببلايك».

وقف يصافحها: حظاً سعيداً سيدة سايمور.. سألحق بك بعد

قليل لأرى زوجك ولأرد على ما تودين طرحه من أسئلة. لماذا لا تحملين إليه طعام الغداء؟ شهيته إلى الطعام قليلة، وهذا أمر غير طبيعي، ولكن ربما تنجحين حيث فشل غيرك.

تضاعفت مخاوف مارسي: «سأحاول».

ـ هل لي أن أسألك سؤالاً خاصاً؟

نظرت إليه متسائلة عن سبب اهتمامه هذا: «طبعاً».

ـ متى تمّ تعارفكما؟

ـ منذ ثلاث سنوات تقريباً.. التقيته حين ابتاع زوج أمي مزرعة مجاورة لأملاك عائلته.. لماذا تسأل؟

ضاقت عيناه على وجهها: «أشعر بالراحة لأن زواجكما لم يكن وليد زوبعة من الغرام، فأنت على الأقل تعرفين ما سيواجهك».

تركت مارسي مكتب الطبيب وأقفلت الباب، ثم اتكأت إليه في الخارج.. أتعرف بلايك كما يعتقد الطبيب؟ لم يكن غرامهما زوبعة صيف ولكن بسبب وجوده الدائم في كينيا، وبقائها في المدرسة العالمية في جينيف، لم يمضيا كثيراً من الوقت معاً.. وطالما انتظرت عودته وعندما وجدت نفسها عاجزة عن ابتعاده عنها مرة أخرى، طلب يدها للزواج واعداً إياها بأن يحل زواجهما كافة الاشكالات.

سرت قشعريرة في جسمها وهي تتذكر ما همس به بلايك وهما في المطار بعد الزفاف: «الآن وبعد انتهاء مراسم الزفاف ستتحقق الخطوة الثانية وهي الأهم».

كان عناقه الحار هو السبب في هدوئها في الأسبوعين المنصرمين.

ابتعدت عن الباب تهيىء نفسها لمواجهة زوجها. شعرت بأنها ستجد وسيلة ما لإقناعه بأن زواجهما سيبقى كاملاً رغم عماه. أليسا متحابين؟ سيكون حبهما أقوى رباط، فسرعان ما ينجبان طفلاً لأنهما يحبان الأطفال إلا إذا غيّر رأيه.

وقفت مارسي تحت المصباح تتأمل الخاتم في يدها اليسرى، إنه الدليل الملموس على زواجهما.. إطار عريض من الذهب يحيط بأجمل جوهرة. إن الذهب والحجر الكريم من مناجمه. تذكرت أنه قال لها إن لون الحجر البنفسجي يذكره بلون عينيها. فجأة رغبت في العدو في الممر لتغرق في أحضانه ولتشعر بذراعيه حول قدها.

حملت صينية طعام بلايك ثم ولجت إلى غرفته الخاصة التي سرعان ما تردد فيها صوته العميق.

ـ أعيدي الصينية من حيث أتت.. سأغادر بعد دقائق المستشفى. احمليها للمسكين في الغرفة المجاورة، فهو من يعاني من حمية قاتلة.

ترددت مارسي في التعريف عن نفسها وتقدمت ببطء في الغرفة.

ـ قلت إنني لست جائع! وللمرة..

صمت فجأة، وارتفع رأسه، متوتراً: «هذا العطر، اعتقدتك للوهلة الأولى..».

وتلاشى صوته ثم أشاح بوجهه ممرراً يداً مرتجفة في شعره الأسود.

ارتجفت يد مارسي فسُمعت قرقعة فنجان الشاي وانزلاق غطاء الإبريق.. وضعت الصينية بحذر على الطاولة الصغيرة قرب السرير ثم استدارت لتشبع بصرها من صورته الحبيبة. كان يرتدي بيجاما وروباً من الحرير. هل أحضرهما له صديق أو موظف من المزرعة؟ هل هو من اختار هذا اللون البني أم سكرتيرته؟

اهتزت مرة أخرى ثقتها بنفسها وكادت لا تفهم بلايك الذي يعيش في هذا الجزء من العالم..

صدمتها ملامحه الغريبة في الوقت الراهن فقد تعمقت الخطوط حول شفتيه ولكن وسامته ما زالت مدمرة كحاله دائماً، من الواضح أنه يصر على حلاقة ذقنه بنفسه، فلقد ترك عدة ثغرات، شعره أطول

بقليل، ووزنه أقلّ مما عهدته.. لكنه ما زال رائعاً بالنسبة لمارسي.

راقبته بافتتان وهو يحاول توضيب حقيبته.. كان يضع الأغراض بطريقة فوضوية.. ثم شتم بعنف عند وقوع بعض الشرائط المسجلة عن السرير.. عصرت أصابع جليدية قلب مارسي وهي تراقبه يتحسس حافة السرير، لينحني على يديه وركبتيه بحثاً عما أوقعه.

تحركت لا إرادياً تساعده فتراجع رأسه الأسود إلى الوراء، وكأنه جواد أصيل غير أليف. وشهقت مارسي غصباً عنها. حدقت عيناه إلى الأمام مباشرة فبان لونهما البني المخملي الجميل ولم تصدق أنه لا يراها.

قال بلهجة حادة لاسعة:

ـ ماذا تريدين بالله عليك؟ لست السيدة كورلي.. فهي أكثر حكمة من أن تحاول إجباري على تناول الطعام.

ارتجفت مارسي.. وطافت عيناها عليه.. لا أثر لجرح عليه.. قال الطبيب إن شظية صغيرة خرقت الجمجمة.

أضفى عليه اللون الأسمر الأحمر الذي اكتسبه عبر مر السنين عافيةً وصحة.

صاح بها ساخراً فقفزت مذعورة:

ـ هل شاهدت ما يكفي.. كائناً من كنت؟ ألا ترين أن من قلة الأدب التحديق إلى رجل أعمى؟

أصاب مارسي الهلع.. إنها لا تعرف هذا الرجل الذي يسكن جسد بلايك. تصبب العرق من جبينها، فنهرت نفسها لأنها تتصرف بعكس ما كانت تريد.

ـ بلايك؟

وارتجف صوتها.

بدت الشهقة التي خرجت من رئتيه أشبه بتمزيق الحرير. ثم همس

بصوت أجش تحشرجه الصدمة، ممزوج بما هو غير معروف:

ـ يا إلهي.. هذه أنت..

ظهر البياض حول فمه المشدود: «مارسي».

خرج اسمها وكأنه آهة حارة أو كأنه أخرجه بالقوة من جزء معتم خفي.. ولكن في نطق الاسم عاطفة عميقة فضحت توتره وهذا ما يجب أن تراه في نفسها.

هرعت إليه: «أجل بلايك.. كان المفترض أن تعود إلى لندن.. ولكنني سامحتك».

همست بهذه الكلمات همساً ثم عقدت ذراعيها حول عنقه تعانقه بشغف ولّدته العواطف التي اختبرتها في اليومين الماضيين.. ولكن جسمه حافظ على تشنجه مع أنها لم تلحظ هذا في اللحظة الأولى التي تجاوب فيها. ثم دفعها عنه، وارتدّ إلى السرير مصطدماً به فعاد يشتمه ولكنها رأت صدره يرتفع وكأنه يكتم أنفاسه.

قال بصوت عدائي بارد أجفلها: «ماذا تفعلين هنا، مارسي؟».

ابتلعت ريقها: «أي سؤال هذا الذي تطرحه على زوجتك؟».

دس قبضتيه في جيبي روبه ثم نظرت إلى قسمات وجهه التي قُدت من حجر.

ـ تعرفين أنني لا أريدك هنا.. قلت لك كل شيء في رسالتي.

خفق قلبها بشدة واقتربت: «أية رسالة؟».

ـ الرسالة التي أمليتها في المستشفى على سكرتيرتي التي أكدت أنها أرسلتها.

ـ أقسم لك بلايك أنني لم أستلم رسالة.

تبع هذا صمت طويل، يقوّم فيه مدى صدق كلامها:

ـ فلنفترض أنك تقولين الحقيقة. إذن كيف أفسر وجودك هنا؟ لقد كان اتفاقنا أن أتصل بك.

ـ اتصل الطبيب هارمان بوالدك أمس وأخبره بما أصابك فسارع والدك إلى الاتصال بي، وما إن استطعت ترتيب الأمر حتى سافرت على أول طائرة.

شحب وجهه، وأمسك سياج السرير حتى ابيضّت عقد أصابعه..

أردفت: «بلايك لماذا لم تخبرني بما حدث؟ أنت تعلم أنني كنت سأهرع إليك في الحال».

مدت يدها تمسك يده القريبة منها، غير أنه ما إن ضغطت على أصابعه بلطف حتى انتزع يده منها مبتعداً عنها فشعرت بألم شديد.

تمتم متجهماً، ويده تلوح فوق الأشياء المبعثرة في حقيبته:

ـ ما كان عليك المجيء. أرسلت تلك الرسالة مع مرسال خاص.. ولكن تدخل الطبيب هارمان غيّر مجرى الأمور وحال دون استلامك الرسالة التي شرحت فيها سبب رفضي مجيئك ذاكراً أن زواجنا لن ينجح.

سحبت نفساً عميقاً تحاول يائسة الحفاظ على هدوئها.

ـ حسناً.. بما أنني الآن هنا فهل لك أن تقول لي ما تريد وجهاً لوجه.

راقبت يده تفتش عن مقبض الحقيبة.. كان نبض عنيف يخفق عند فوديه.

ـ عودي إلى بيتك مارسي.. ليس لك في هذا المكان شيء.

وأقفل الحقيبة ولكنه لم يستطع تثبيتها لأن طرف منشفة حلاقته كانت عالقة.

لقد هيأت نفسها للتغييرات التي طرأت عليه ولكنها لم تتوقع هذه القسوة وهذا الجفاء. تحول إلى غريب مخيف لا يطاق.. شعرت بأنها لو اقتربت منه لدفعها بقوة وأوقعها أرضاً.

همست: «أنا في بيتي.. نحن متزوجان منذ ثلاثة أسابيع، وفي

يدي الخاتم الذي يثبت صدق قولي! ألم يبن هذا الزواج على البقاء معاً في السرّاء والضراء حتى يفرقنا الموت؟».

ـ ولكنني أصبحت أعمى.. وهذا ما يغيّر الأمور!

ـ لكنك حيّ! إن أهم ما في المسألة أنك حي ترزق.. ومهما كان لا أنكر فظاعة العمى ولكنني سأفعل ما بوسعي وسننجح نحن معاً.

سمعته يشتم من بين أسنانه: «مخطئة يا مارسي».

وتابع:

ـ ليس هناك ما اسمه «نحن».. لقد قلت للطبيب هارمان إنني لا أريد زواراً.

قالت بإصرار: «لكن الزوجة ليست زائرة. لما لم تخبر الطبيب بزواجك؟ أثقتك بي معدومة إلى هذا الحد؟ أتظن أنني قد أحرجك أمام أصدقائك ومساعديك؟».

مرر كلتا يديه في شعره البنّي القاتم، دليل إحباطه وغضبه:

ـ ليس هذا هو السبب. لا يمكنك أن تفهمي مارسي.

قالت بصوت متوسل تحدق إليه:

ـ ساعدني إذن! أحبك بلايك.. فدعني أكون زوجتك. أرجوك ضمني إليك..

ضاقت عينا بلايك:

ـ توقفي عن هذا مارسي.. لقد غيرت الحادثة كل شيء.

ـ حتى حبك لي؟

طغى على وجهه ظل ألم سرعان ما اختفى..

ـ لم أعد الرجل الذي تزوجته، إذ يغير فقدان البصر حالنا فنشعر بأننا غير الشخص الذي كان يوماً، علي أن أمضي في هذه الحياة وحدي، يؤسفني ألا تصلك الرسالة في الوقت المناسب فلو استلمتها لما تكبدت مشقة السفر الذي لا نفع منه.

ـ لا نفع منه؟ لا يمكنك تغيير واقع زواجنا بلايك. أنا هنا الآن وهذا يعني أن الرسالة بدون فائدة. اسمع أرفض التخلي عن زواج لم يبدأ بعد!

ـ ولن يبدأ! سأغادر المستشفى وأقصد شقتي أما أنت فسأوقف لك سيارة أجرة تقلّك إلى المطار لتعودي إلى لندن على أول طائرة.

ـ لست جاداً!

استقامت هامته وتصلب فكه غضباً:

ـ لم أكن قطّ جاداً كحالي الآن.

أقنعتها خشونة نبرته أنه يعني ما يقول. فسارعت تقول أول ما بدر على خاطرها:

ـ لا رحلات إلى لندن حتى الغد. ولكن إن كنت ملهوفاً للخلاص مني، فسأستقل سيارة أجرة تقلني إلى فندق ما.

جاءها رد غير متوقع: «لا مارسي.. لن أسمح بإقامتك في فندق وأنت بمفردك إذ لا تعرفين «نايروبي» كما أنك أجمل من أن تبقي وحيدة».

دلّك عنقه وتمتم بما هو غير مفهوم:

ـ أرى أن لا حلّ سوى اصطحابك إلى الشقة.. وغداً لكل حادث حديث. ففي الصباح الباكر سأطلب سيارة أجرة لتقلك إلى المطار.

ـ بلايك، أنا في الثالثة والعشرين.. ولست طفلة تأمرها بما تشاء!

انسلت الكلمات من فيها قبل أن تتمكن من منعها، فتصاعد عبوس خطر إلى وجهه:

ـ وماذا عن الرجل الذي تزوجتيه؟ ألم يعد له وجود؟

تقدم إلى الحمام ثم صفق الباب وراءه.. فصاحت بغضب:

ـ توقف عن الإشفاق على نفسك!

ـ سيدة سايمور؟

التفتت مارسي إلى صاحب الصوت متوردة الخدين:

ـ سيد هارمان..

ـ لماذا لا ترافقيني لحظة إلى الردهة؟ أريد محادثتك.

لحقته مارسي إلى الممر، مستندة إلى الحائط لتدعم نفسها.. لقد أرهقتها مواجهة بلايك.

ـ لا بد أنك سمعت شجارنا.. أنا خجولة من نفسي لأنني فقدت أعصابي ونسيت للحظات أنه أعمى، فلم أفكر إلا في أنه يرفض منح نفسينا فرصة.

ـ عرفت أن شيئاً كهذا سيحدث إنما عليك أن تدركي أنه لم يتقبل عماه، إذ لا يستطيع أن يصدق أنه لن يرى مرة أخرى.. هذا عدا الصدمة التي سببتها وجودك. إن ذلك كله هو سبب تصرفه المخزي.

رفعت مارسي رأسها: «وحتام سيبقى على هذه الحال؟ فأنا زوجته التي تحبه حباً جماً».

هز الطبيب رأسه: «ليتني أملك الجواب. عليك منحه بعض الوقت».

ـ لكن الوقت ينفد مني.. إنه يتوقع عودتي إلى لندن صباح الغد.

ـ لكن هذا اليوم لم ينتهِ بعد.. ما هي خططك الآتية؟

رفرفت مارسي عينيها لتمنع تساقط الدموع.

ـ قال إننا ذاهبان إلى شقته غير أنني أود لو يصحبني إلى المرزعة.. حين أفكر في الخطط التي وضعناها..

وتلاشى صوتها.

ـ لا تتخلي عن خططك، فهذا هو اليوم الأول فقط.. أرجو منك الاتصال بي متى شئت. سأترك لك رقماً يخولك الاتصال بي في أي وقت أردته. وتذكري أيضاً أن رئيسة الممرضات، السيدة كورلي، هي خبيرة في العمل مع المعاقين بصرياً. وستعلمك كيف تساعدين زوجك

في التكيف مع الروتين اليومي. اتصلي بها وتواعدي معها.

أرجعت مارسي خصلة من شعرها عن خدها.. إنها لا تفكر أبعد من الغد الذي ينوي فيه بلايك إرسالها على أول طائرة إلى لندن:

ـ شكراً لك أيها الطبيب هارمان.. أشكر لك نصائحك.

ربت ذراعها: «حظاً سعيداً».

نظرت مارسي إليه وهو يبتعد، ثم عادت إلى الغرفة ثانية. فيما كانت تحدث الطبيب ساعد ممرض عجوز بلايك على ارتداء جينز ضيق وقميص مماثل، وهذا زي طالما ارتداه عندما كانا يمتطيان صهوة الجواد، بدا لها بعدما فقد شيئاً من وزنه أطول قامة وأوسم محيا.

ـ بلايك؟

ـ أين كنت؟

كانت تتمسك بقشة الغريق.. ولكنها ظنت أنها سمعت في صوته شيئاً من اللهفة الممزوجة بحزن، فقالت:

ـ أراد الدكتور هارمان توديعنا وتمنى لنا السعادة.

التوى فمه، لكنه لم يعلق، فتابعت:

ـ ماذا عن غدائك؟ ألن تأكل قبل أن نخرج؟

ـ ألا تفهمين أنني سأختنق بهذا الطعام؟

ـ إذن، هل تعترض إن أكلته أنا إذ لم أتناول شيئاً منذ ظهر الأمس.. أعرف أن هذا سخيف ولكنني لم أكن على ما يرام بالأمس.

ازداد الدوار الذي شعرت به في الممر منذ قليل سوءاً فلجأت إلى كرسي قرب الخزانة وموجات الغثيان تغمرها والعرق يتصبب منها.

ـ مارسي؟

لم تتوهم ما تسمعه في صوته من اهتمام ولهفة ولكنها تشعر بسقم تعجز معه عن التجاوب. تلمس طريقه نحوها، ودس يده الدافئة في شعرها حتى مؤخرة عنقها.

- بشرتك مبللة.. ضعي رأسك بين ساقيك.

عندما نفذت نصيحته تلاشى الطنين في أذنيها ثم رفعت رأسها، تستمتع بملمس يده على بشرتها.. وتسللت أصابعه إلى شعرها، يدلك جلدة رأسها، بإصرار لطيف.

- أفضل حالاً الآن؟

رأت أثر الابتسام حول فمه.. فهزت رأسها إيجاباً ولكنها أدركت أنه لا يراها.. لقد نسيت الأمر للحظات.

- أجل.. أفضل بكثير.. شكراً لك.

- لا تتحركي.

راقبته بقلب ملؤه الحب وهو يحاول أن يجد طريقه إلى الطاولة بحثاً عن شيء تأكله.. بعد أخطاء عدة تمكن من العودة إليها حاملاً كوب عصير تناولته من يده وسارعت تنهله دفعة واحدة.

- طعمه لذيذ.

سألها بعدما جلس إلى جانبها: «بالله عليك لماذا لم تأكلي شيئاً؟».

وجدت يده ذراعها، فأنزلها حتى المعصم تجسَّ نبضها فارتجفت.. ولكنها قاومت اندفاعاً يدفعها إلى احتضان رأسه الأسود.

- هو السبب نفسه الذي منعك من الأكل.. لكنني بخير الآن بلايك.

سمعته يتنهد تنهيدة عميقة: «أنت بحاجة إلى الطعام، سأطلب صينية أخرى».

- لا، رجاء لا تزعج أحداً، سأنهي طعامك.

وقفت على ساقين ما تزالان وهنتين ثم جذبت يدها على مضض من يده، وسارت متعثرة إلى الطاولة، وبدأت تأكل الخبز والدجاج.

وقف بلايك متردداً والتردد ليس من عاداته وبدأ يبحث عن الهاتف

المعلق على الجدار حتى وجده.

تمتم شاتماً حين وقعت السماعة ولكنه أخيراً تمكن من الاتصال بسنترال المستشفى، طالباً سيارة أجرة ثم ما لبث أن أجرى اتصالاً آخر وعندما سمعته يتكلم غير الإنكليزية افترضت أنه يتكلم لغة الساحل الإفريقي التي يتقنها بجودة أهل البلاد. أعاد السماعة إلى مكانها في اللحظة التي دخلت فيها امرأة متوسطة السن إلى الغرفة.

- نحن جاهزون سيد سايمور.. الكرسي المتحرك وراءك تماماً.

لاحظت مارسي كيف اشتدت قبضتاه:

- أستطيع الخروج سيراً على قدميّ.

- أعرف بماذا تشعر سيدي، ولكنها سياسة المستشفى.

قاطعتهما مارسي قبل أن يتطور الجدال:

- بلايك.. لقد توجهت مباشرة من المطار إلى المستشفى وقد تركت حقائبي في قسم الاستقبال.. سأذهب لأحضرها ثم ألقاك عند الباب الرئيسي.

- كم حقيبة أحضرت؟

أغمضت عينيها: «حملت كل أغراضي إلا جوادي كينغ الذي سيصل في أسبوع».

اسودت عيناه، وأراد أن يقول شيئاً ولكنها خرجت من الغرفة قبل ذلك. في الطريق إلى مكتب الاستقبال تذكرت كلمات زوج أمها: «لقد أنعم الله على بلايك بنعمة أكبر من بصره، إنها حبك له عزيزتي».. ولكن ما أسهل القول! فبعد موت أبيها الحقيقي، تزوجت أمها من أرمل لم يرزق بأولاد. والذي حدث أن مارسي ملأت عليه حياته فتعلق بها إلى حد الشغف.. وكانوا عائلة سعيدة يغمرها الحب ولكنها عرفت الآن أنها بحاجة إلى أكثر من الحب لمساعدة بلايك.

* * *

٢ ـ الأعمى الخطير

خرج رجل من سيارة الأجرة وخاطب مارسي: «هل اسمك سايمور؟».

ـ أجل، سيحضر زوجي عما قريب.

حك الرجل رأسه وهو ينظر إلى كمية الحقائب التي تحيط بها: «هل هذا كل شيء؟».

ـ لا.. فمع زوجي حقيبة أخرى.

تمتم السائق بلهجته المحلية، وأخذ ينقل الحقائب إلى ظهر السيارة البيجو الطويلة. وما لم يستطع وضعه هناك وضعه على المقعد الأمامي قربه:

ـ اصعدي إلى الخلف، وسأضع حقيبة بين قدميك.

فعلت مارسي ما قاله لها. وما هي إلا لحظات حتى رأت بلايك يخرج من الباب الأمامي على كرسي نقال. انعكست شمس الظهيرة على شعره فزادت من الخصلات الكستنائية في شعره البني.. بدا لها مبصراً بهذه النظارة ولكنها شعرت بانقباض سحنته بسبب التوتر الذي يمسك بخناقه.. إنه بحاجة إلى شجاعة نادرة في هذا الوقت الراهن كما أنه بحاجة إلى الأمان الذي تقدمه له.

بدأت نتائج عاهته تُظهر تأثيرها.. وأحست بالغضب على عماه الذي أفرغ علاقتهما من حرارتها السابقة، فهو الآن يعيش عالمه الخاص الذي لا تفهمه أبداً.

ـ هذه عكازك سيد سايمور.. مع تحيات الجناح الذي كنت فيه!

وضعت المرأة العجوز العصا على ركبتي بلايك ولكنه نحاها عنه فوراً.

ـ لا أحتاج إليها. أفضل اللجوء إلى مذياع لأعلم الناس بعماي بدل استخدام هذه العصا.

أحست مارسي بالهلع بسبب فظاظة بلايك ولكن المرأة لم تتأثر..

خرج بلايك من الكرسي ليضع يده على إطار الباب المفتوح وأخذ يستوي جالساً إلى مقعد السيارة الخلفي. مرت يده الأخرى عفواً على ظهرها فشعرت بحرارة يده فوق القماش القطني، وتصاعدت نبضات قلبها حين ظلت يده عليها وكأنه بحاجة إلى أن يتلمسها بدون أن يتمكن من منع نفسه.. خرجت هذه اللحظة آهة خفيفة منها، والمؤسف أنه سمعها لأنه سارع يسحب يده، واستوى في جلسته بعد إقفال الباب ثم تجنب بعد ذلك أية ملامسة بينهما.

لم تستطع مارسي نزع نظرها عنه.. فقد ملأت ملامحه الجميلة السمراء بصرها وشغلتها عن أي شيء آخر، وازدادت شوقاً إلى احتضانه. كانت أعصابها ترتجف شوقاً إليه وكانت تعلم أنه يريدها كما تريده ولكنه يحاول بسبب إصابته تلك إخراجها من عالمه المظلم.

انطلق السائق إلى الطريق المزدحم يحاول المناورة ليتجاوز ما يعيق طريقه وسط همهمات كثيرة يتبادلها سائقو السيارة أخيراً مدت يدها إلى ذراعه البرونزية:

ـ بلايك.. يبدو أن الجميع غاضب.

أجفلته لمسة أصابعها فسارعت تبعدها أما بلايك فجلس يحدق أمامه مباشرة:

ـ إن السكان يستخدمون لغتهم بطريقة عفوية وستعتادين على سماعها هكذا.

www.liilas.com (doode al7aba)

بدا لها رغم قربه منها بعيداً جداً عنها.

قاد السائق السيارة كالمهووس.. ولكنها حال الجميع وهذا ما عليها اعتياده لأنها ترفض الرحيل مهما قال بلايك.

بعد دقائق، توقف التاكسي في قلب المدينة أمام مجمّع سكني حديث مؤلف من خمس طبقات. قال بلايك لها مرة إن مكاتب شركته تقع على مقربة من شقته.

قال لها بلايك: «سيحمل السائق الحقائب إلى الردهة، ثم يرافقك الحارس إلى الشقة».

شعرت بالإحباط: «إلى أين ستذهب؟».

أشعرها قراره غير المتوقع بالدمار فأرادت أن تصيح احتجاجاً على هذا الإجحاف بحق حبها فقبل الحادثة لم يكن يطيق ابتعادها عن ذراعيه لحظة لأي سبب كان أما الآن فهو لا يطيق صبراً على التخلص منها.

ـ لدي بعض الأشغال في المكتب مارسي.. ولا أعرف متى أعود الليلة فلا تنتظريني.. طلبت من حارس البناء وضع بعض الأطعمة في المطبخ. لا تخرجي من المنزل إذا أحسست بالقلق بل شاهدي التلفاز عند الضجر. لا أريد أن تتجولي في نيروبي بدون أن يكون لديك مرافق أفهمت هذا؟

طالما أجهد نفسه بحمايتها ولكن اهتمامه الآن بدا تملكاً.. ولم تشأ أن تضيف إلى قلقه قلقاً:

ـ سآوي إلى فراشي. لقد أثّر في السفر وتغيير الوقت، لكنني وعدت أهلي بالاتصال بهم حال وصولي. هل تعترض إن اتصلت بوالدك لأطمئنه على أحوالك؟

تنهد ساخطاً: «لا أرى ضرورة إلى ذلك فأنت مسافرة غداً. إنما لا بأس باخطارهم حتى يذهبوا إلى ملاقاتك في المطار».

رفعت عجرفة صوته وتسلطه من وتيرة غضبها مرة أخرى.

فأسرعت تتناول حقيبة الماكياج، أما السائق فنقل الأغراض حتى بوابة المبنى وهناك ظهر رجل عرفت أنه الحارس أشار إليها بأن تلحق به.. التفتت بلهفة إلى بلايك وكبحت رغبة جامحة كادت تدفعها إلى تحذيره لينتبه لنفسه، ولكن منعها من ذلك وجهه العنيد الصلب. إنه الوجه الذي يقدمه لعالم الأعمال.. رجل السلطة، القوي، الماكر.. غير أنه بدون الصفات القيادية لما تمكن من شق طريقه ومن إنشاء امبراطوريته على هذه الأرض. تعرف مارسي أن له وجهاً رقيقاً وهو الوجه الذي عرفته فيما مضى. أحست بالألم يسري في عروقها وتساءلت متى سترى من جديد ذلك الوجه.

وضعت يدها فوق عينيها لتبعد الشمس عنهما، ونادته:

ـ سأبلغ فنسنت تحياتك وحبك.. أراك فيما بعد.

ولكن بلايك لم يرد عليها.

حثت الخطى خوفاً من الانهيار أمام الحارس الذي رافقها في المصعد إلى الطابق الثالث، وهو يقول لها:

ـ للبناية ترتيبات أمنية سيدة سايمور.. ما من أحد يستطيع الدخول بدون مفتاح خاص وبناء على هذا ستكونين في أمان.

شكرته بسرعة ثم أقفلت باب الشقة واسندت جسمها إلى الباب في اللحظة التي انهمرت الدموع الخانقة وهناك على الباب استسلمت لليأس منحنية باكية، تبكي الظلم الذي نزل بها وبحبيبها. فقد سلبه العمى قدرته على التواصل مع أحد خاصة زوجته.

راجعت تلك اللحظات في غرفة المستشفى حين رمت ذراعيها حوله وعانقته. لقد تجاوب تجاوباً ملؤه الشوق القديم والحب المشبوب ولكن لما تذكر عماه تقوقع على نفسه وأبعدها عنه، في تلك اللحظة شعرت أن بلايك الذي وقعت في حبه ما زال هنا، ولكنه مدفون تحت طبقات كثيفة من الألم والمرارة... والآن ما السبيل لإيجاد ذلك

الرجل مجدداً؟

عليها أن تجده إن كانت تريد تذوق طعم السعادة مرة أخرى..

مسحت عينيها بعزم ثم تحركت مبتعدة عن الباب، تعي فجأة ما يحيط بها.. قامت بتأمل الشقة المؤلفة من غرفتي نوم، المؤجرة مفروشة.

خلعت صندلها، وسارت نحو المطبخ، لتسخّن حساءً جاهزاً ولكنها لما باشرت بارتشاف الحساء فقدت شهيتها فعدلت عن الطعام وتوجهت إلى الحمام لتستحم.. ثم لما خرجت منه عمدت إلى الاتصال بعائلتها وبوالده.

تعلم أن غلالة النوم الحريرية الشفافة الفرنسية الصنع غير ذات جدوى أمام بلايك، ومع ذلك شعرت بالحاجة إلى التظاهر بأنها عروس.. لقد هشم أحلامها المتعلقة بشهر عسلهما.. ولم تنس أنه كان من المفروض أن تكون مستلقية بين ذراعيه تنعم بحبه، ولكن تصميمه على تنحيتها عن حياته يعذبها ويؤرقها.

أخيراً استسلمت، دافنة وجهها في الوسادة التي تعبق برائحة عطرة، وتدفقت دموع سخينة على وجنتيها.

عندما استيقظت بعد ساعات كانت الغرفة تغرق في ظلام دامس. أزعجها صوت ما فهبت في فراشها جالسة.. هل عاد بلايك؟

أرهفت السمع فإذا به يصطدم بشيء ثم سمعته يشتم بصوت منخفض.. رمت الغطاء، ونهضت من السرير تسرع إلى الردهة لتضيء النور وعندها رأت بلايك مستقراً في الغرفة الأخرى المخصصة للضيوف، ولكن رأسه الأسود الشعر كان يتحرك بقلق فوق الوسادة في محاولة للحصول على وضع مريح..

ذاب قلب مارسي حباً به. فدنت منه بعزم ووضعت يدها على ساقه: «بلايك».

هبَّ من مكانه آخذاً قسماً من الغطاء معه.

ـ ماذا تفعلين هنا؟

سرعان ما ارتدت مارسي فقد فتح غضبه الجرح الذي أنزله بها منذ وقت.

ـ جئت أقول إنك في الفراش الخاطىء.. ألم تعدني بالخلود إلى مكان منعزل حيث لن تتركني فيه بعيداً عن أحضانك؟ ومنذ وعدك ذاك وأنا أعيش على هذا الأمل. لقد اشتقت إليك..

خرج كالبرق من سريره، وارتدى الروب نفسه الذي كان يرتديه في المستشفى: «يستحسن أن نتكلم مارسي، تعالي إلى الغرفة الأخرى».

لم تستطع رغم كل شيء تقبل رفضه فصارعت الدموع وهي تلحقه إلى غرفة الجلوس. وفي الطريق ارتطم ببعض الأثاث قبل الوصول إلى مقعده.. بدا لها متعباً... حتى درجة العذاب، مرر يداً مرتجفة في شعره الأسود. ولكن قلقها على مصلحته كان أهم عندها من ألمها...

سألته «أتشعر بالجوع بلايك؟».

ارتفع صدره وهبط: «إن آخر ما أفكر فيه هو الطعام».

ـ كان يومك مرهقاً ولكن ذلك لا ينفي حاجتك إلى الطعام. سأعد لك عشاء.

أسرعت إلى المطبخ قبل أن يرد، وما هي إلا دقائق حتى كانت أعدت بعض السندويشات..

لم تسمعه حين وصل إلى باب المطبخ:

ـ قلت لك إنني غير جائع.

ـ ربما أنت لست جائعاً.. أما أنا فجائعة.

وضعت طبقاً من سندويشات اللحم والطماطم على الطاولة، ثم اتبعته بالقهوة التي تفضلها على الشاي. ما زال بلايك واقفاً في مدخل المطبخ، أما هي فجلست مركزة اهتمامها عليه.. كان يبدو رغم

اسمراره رجلاً مثقلاً بهموم العالم. لقد أقلقتها ملاحظة الدكتور هارمان المتعلقة بالإحباط الذي يمر به.

أخيراً قالت له: «ألن تجلس على الأقل وأنا آكل؟ تبدو مرهقاً».

دلّك مؤخرة عنقه وهي حركة اعتادت على رؤيتها في حالات السخط أو انشغال التفكير:

ـ هل زار أحد الشقة أثناء غيابي؟

ـ لا أدري لأنني غفوت بعد فترة قصيرة من الدخول إلى الشقة. هل توقعت زائراً؟

لوّح بيده بغموض يصرف النظر عن سؤالها، ثم وضع كلتا يديه في جيبي روبه.

ـ أتشعرين بالدوار والغثيان عادة؟

تغلبت عليه نزعته إلى حمايتها فتضاعف حبه في قلبها.

ـ لا أبداً. أعتقد أن السبب انخفاض مستوى السكر في الدم، وقلة نوم. أما قلقي فعليك أنت فلم تكد تخرج من المستشفى، ولو علم الطبيب...

قاطعها بوحشية: «لا تضيفي كلمة أخرى. تبدين قلقة كزوجة.. كيف أفهمك أنني شخص مختلف عن ذاك الذي عرفته؟ أراك تتعاملين مع ما حدث وكأنه نكسة مؤقتة ولكنني أؤكد لك أن إصابتي دائمة».

ارتفع ذقنها تحدياً:

ـ لا أذكر أنني قلت الشيء نفسه منذ سنتين عندما وقعت عن صهوة جوادي «كينغ» الذي أجبرتني على امتطائه مجدداً.. لقد كسرت ضلعين من ضلوعي، وكدت أموت. ولكن ما إن شفيت حتى أجبرتني على الذهاب إلى الإسطبل لأعتلي صهوته. لقد تجاهلت في ذلك الوقت مشاعري وألححت عليَّ حتى أجد الشجاعة لمواجهة الخوف.. كنت مرعوبة بحيث لا أجرؤ على الاقتراب من «كينغ» مرة أخرى ولكن

بلايك الذي كنت أعرفه لم يدعني استسلم!

كان وجهه مغلقاً وهو يتقدم إلى المطبخ، يتحسس أول كرسي أمامه.. ثم قال بانفعال عنيف:

ـ أنا أعمى مارسي.. أعمى! لم لا تدركين الآن ما يعني هذا؟ نحن لا نتحدث عن عظام مكسورة بل عن عجز كامل. ألا ترين أنني لن أتمكن بعد اليوم من قراءة مخطوطة لمشروع ومن مراقبة العمل ومن القيادة؟ كيف تشعرين وأنت تعرفين أن زوجك عاجز عن حماية شعرة واحدة من خصلات شعرك؟

تحركت يده أثناء قوله ذاك بعنف فأطاحت بكوب القهوة القريب إليه، فوقع أرضاً. عندئذ هبت مارسي من مكانها وأسرعت إلى المغسلة لإحضار قطعة قماش لتنظيف ما انسكب.

وقف بلايك مرتبكاً يتحسس طريقه إليها حتى لامست يده ذراعها:

ـ يا إلهي..! هل أحرقتك؟

سارعت تطمئنه مصغية إلى رنة العذاب في صوته.

ـ لم أصب بأذى كما أن القهوة باردة.

أحست بجوع ويداه تمران على ذراعيها صعوداً ونزولاً.. وقفا متلاصقين تندمج رائحة عطرها ورائحة بشرته ليؤلفا رائحة مثيرة منبهة للأعصاب. أرسلت أنفاسه الدافئة دفئاً إلى قلبها، فهمست:

ـ وقعت بضع نقاط على غلالة نومي.

انحنى رأسه إليها فتوقعت منه عناقاً ولكنها ما لبثت أن سمعت أنفاسه الحادة قبل أن يدفعها بعيداً عنه.

خرجت آهة حارة من حنجرتها. فلقد مرت اللحظة غير المتوقعة وتركتها تعاني من حرمان شديد. أما هو فوقف قرب الكرسي يصغي إلى حركتها وهي تنظف الأرض من السائل المسكوب..

قال بصوت مشبع بكراهية النفس:

ـ لست عاجزاً فقط . . لكن قد أكون خطراً.

استسلمت إلى رغبة شديدة دفعتها إلى ضمه من وراء ظهره.

ـ لا تقل هذا بلايك!

ولكنه تحرك مبتعداً فهوت ذراعاها إلى جنبيها.

ـ طالما أشعرتني بالأمان ولكن لا شأن لعماك بهذا الشعور . .

أخذ يلعن بصوت منخفض وهو يستدير إليها:

ـ لكنني الآن لا أستطيع أن أجدك!

ـ مضت الحادثة فأعط نفسك مهلة بل أعطنا مهلة.

جلجلت ضحكة خشنة في حنجرته:

ـ مهلة؟ لا أراك تفهمين مارسي . . لن يتبدل عماي. وها هو زوجك رجل غير كامل. متى ستواجهين هذا الواقع؟

ـ ها أنت تعود للإشفاق على نفسك مرة أخرى!

كان يقتلها ما تقوله ومع ذلك أجبرت نفسها على أن تضيف:

ـ حسن جداً . . لقد فقدت بصرك . . ولكن يبدو أنك فقدت شجاعتك وسحرك معه كذلك.

امتقع وجهه بلون أحمر:

ـ من علمك طعن الرجل في كرامته؟ ما كنت لأشك أنك قادرة على ذلك.

ـ ثمة أمور كثيرة تجهلها عني ومن سوى الحظ أن هذه الحادثة كشفت اللثام عن صفات لم أعرف أنك تملكها. إن جلَّ ما أتمناه ألا تعامل موظفيك، كما تعاملني . . فلديك سمعة تُحسد عليها . . لقد أخبرني الطبيب عن مدى نجاحك في مضمار العمل وقد أخبرني أن الجميع ينظرون إليك على أنك رجل مسؤول . . وقد يكون لصالحك أن يستمر الجميع بتصديق هذا! لا تقلق، لن أدع أحداً يعرف بأنك استسلمت بسرعة.

رد بشراسة، يضرب قبضته على الطاولة بقسوة جعلت طبق السندويشات يقفز من مكانه:

ـ هذا صحيح . . لأنك لن تكوني هنا.

انكمشت أمام غضبه:

ـ أرى أن لا سبيل إلى اختراق دماغك والوصول إليك. أملت أن نتمكن من التفاهم، ولكنني أخطأت.

صاح، وهي تمر به مسرعة: «مارسي».

لكنها أكملت طريقها إلى غرفة النوم لتصفق الباب وراءها ولم يكن بعيداً عنها، فقبل أن تلتقط أنفاسها انفتح الباب، وقال بصوت ملؤه الوعيد:

ـ لا تتركيني وتهربي هكذا مرة أخرى . . فأنا لم أنتهِ منك.

ارتدت على عقبيها:

ـ ظننتك انتهيت . . لماذا تزوجتني أساساً؟ لقد أقسمنا على الإخلاص أمام الله . . أليس لهذا القسم معنى عندك؟

ـ لم نقسم أمام المذبح مارسي.

صدمها قوله فدنت منه والدم قد ارتحل عن وجهها:

ـ أترى أن زواجنا غير ملزم لأننا لم نعقده في الكنيسة؟ كيف تجرؤ على هذا القول؟

غشي عينيها السواد وأكملت تصيح وهي تسحب خاتم خطوبتها وزواجها وتضعهما في جيب روبه: «خذ».

ما إن تلامس جسديهما تقريباً حتى شاهدت شحوبه المفاجيء. وأكملت:

ـ إبق هنا وحدك يا زوجي الحبيب . . انغمس في عالمك المظلم وتمتع ببؤسك . . ولا تخاطر أبداً ولا تسمح لأحد وعلى الأخص لزوجتك بالاقتراب منك.

وأقفلت الباب في وجهه، نادمة على تصرفها الأرعن.

كان ذانك الخاتمين جزءاً منها. فمنذ أن سافر إلى سويسرا، ليفاجئها بخاتم الخطوبة، عرفت عمق حبه لها.. وها هي الآن قد رمت له الخاتمين ولم يمض على مغادرته المستشفى سوى ساعات. أصرَّ بلايك على دفعها للاستسلام وكان أن تركته يؤثر فيها. ألن تتعلم أبداً؟

ظلت مارسي طوال الليل تراجع ما تبادلاه من حديث. لقد قال كل منهما كلمات كان الهدف منها جرح الآخر في الصميم. ولكن كيف استطاعت هي ذلك؟ شعرت بذنب شديد فكيف تجرأت على أن تقول له تلك الكلمات؟ أما كانت ستفعل ما فعله لو كانت هي مكانه؟ أما كانت ستسعى إلى إبعاده عنها لتحرره من الارتباط بامرأة عاجزة؟ ولكن ألم تكن لترغب في أن يحارب من أجلها؟ ألن يصيبها الإحباط المدمر لو استسلم بسهولة؟

نهضت في الصباح من فراشها وهي تشعر بالصداع ولم تكن تلك الليلة قد أغمض لها جفن فشعرت بعينيها مشتعلتين. شعرت بغثيان شديد. هل ظلّ مستيقظاً طوال الليل. ينتظر الصباح ليتمكن من إعادتها إلى انكلترا؟..

بعد ترتيب السرير، ارتدت سروالاً قطنياً وبلوزة بلون الزبرجد الأخضر وربطت شعرها بمنديل حريري ثم أعدت نفسها للخروج وملء نفسها العزم على إنجاح زواجها.

ما إن خطت خطوة إلى الردهة حتى سمعت أصواتاً قادمة من غرفة الجلوس، كانت الأصوات منخفضة بحيث لم تميّز الكلمات، ولكن ميزت أن الصوت صوت رجل. تصاعد الغضب إلى نفسها كمد حارق.. لقد فعل بلايك هذا عامداً متعمداً ليحول دون أي جدال آخر قد يجري بينهما. لقد اتخذ الاحتياطات ليتأكد من سفرها قاطعاً بذلك آخر أمل لهما بالتواصل.. ماذا تفعل الآن؟ أتدعي المرض؟ لن يصدقها

بلايك أبداً.. إنه حاضر لأي نقاش مقنع.. الطريقة الوحيدة أمامها أن تنفذ ما يريد. ولكن ذهابها إلى المطار لا يعني بالضرورة السفر. لم يفهم بلايك أن الحياة بدونه هي أسوأ من العمى بالنسبة لها.

عندما دخلت مارسي إلى الغرفة رأت رجلاً ضخم البنية أشيب الشعر.

قدرت أنه في الأربعينات من عمره.. وهذا يعني أنه أكبر من زوجها الذي يبلغ من العمر الحادية والثلاثين. كانت نظرته تقومها.. وهذا ما لم يدهشها لأن بلايك لم يخبر أحداً عنها وأكمل الرجل يعرّف عن نفسه:

ـ أنا غرانت يونغ، أنوب عن الرئيس حتى يعود إلى المكتب. تسرني مقابلتك.

ومد يده الضخمة ليصافحها.. فهزت له يده:

ـ كيف حالك؟

أخذت تنقل بصرها بينه وبين زوجها، الذي تسارعت نبضاتها ما إن حطت عيناها عليه. كان يقف وسط الغرفة منفرج الساقين، يرتدي جينزاً أزرق وكنزة خضراء قاتمة.. بدا مسترخياً لطيفاً وكأنه ليس الرجل الكريه الذي رأته ليلة أمس.

أردف الرجل: «أنا آسف لتطفلي عليكما في شهر العسل.. بلايك شديد التكتم. هل أستطيع تهنئتكما لزواجكما؟ لم يكن لدي فكرة حتى لحظات مضت أن لبلايك زوجة يعود من أجلها إلى المنزل».

اتجه نظره إلى الرجل الأطول منه وهذا ما أعطاها فرصة لدراسة الرجل الثاني بعد بلايك في السلطة. إن هذا الرجل رغم السلطة التي أولاها إياه بلايك يجهل خبر زواجهما..

ابتسم لها عندما عاد نظره إليها:

ـ ذوقك رائع يا صديقي العزيز.. لا أستغرب مثابرتك على السفر

إلى سويسرا.

تمتم بلايك بعاطفة صدمت مارسي: «أحمد الله أنها الآن هنا... حبيبتي».

مد يده إليها فلم تصدق مارسي أن هذا يحدث ولكنها لم تكن بحاجة إلى التقليل من المسافة التي تفصلهما.. وأطبقت يده بتملك على يدها حالما لامسته..

همس: «هل أيقظناك من النوم؟».

وطبع قبلة على وجنتها فكادت لا تصدق تبدّل أحواله. ردت عليه:

ـ لا.. الواقع أن الشقة بدت صامتة حتى ظننت أنك خرجت..

عقد ذراعه حول كتفيها النحيلتين، وضمها إليه:

ـ لن أفعل هذا سيدة سايمور.

ثم انحنى إليها يعانقها عناقاً طويلاً قاسياً، مادت الغرفة بمارسي وجعلتها المفاجأة تترنح ولكن سرعان ما أحست بذراعه الأخرى تدعمها.

تنحنح غرانت ضاحكاً: «من المستحسن بي الانتظار خارجاً في اللاندروفر أو الذهاب إلى العمل والعودة ظهراً لأصحبك؟ ما كان علي أن أتطفل».

تمهل بلايك حتى في رفع رأسه:

ـ لا تعتذر غرانت.. فلم تكن تعرف أنني أحتفظ بمارسي لنفسي.. ومن حسن الحظ أنه سيكون لي ولزوجتي الجميلة الوقت الذي نريده حين نصل إلى المرزعة.

اختنقت شهقة ذهولها بعناقه الذي سعى فيه إلى تجاوب آخر أقوى من الأول. كان بلايك يريد أن يشهد الرجل الآخر عرض مشاعره الزوجية.. وكان يطالب بتعاونها.

جذبها معه عميقاً إلى دوامة من المشاعر فنسيت كل شيء.. الألم والقسوة والرفض.. تركها متردداً ثم همس بعدما رفع رأسه عن رأسها:

ـ اذهبي لتناول الفطور فكفانا إحراجاً لغرانت. لقد عرض أن يقلنا إلى المزرعة، فإن كانت حقيبتك جاهزة حملها الآن معه إلى السيارة.

لولا ذراعه القابعة حول كتفيها لتهاوت أرضاً.

أشاحت نظرها عن عيني غرانت وقالت: «سأسرع».

اتجهت إلى المطبخ في حالة وهن وكان رأسها يعجّ بأسئلة لا رد لها.. ولكنها ترى أن بلايك مهما كانت دوافعه غير راغب في إبعادها.

حمّصت التوست، وصبت الحليب ولكن أفكارها انصبت على تبدل حال زوجها المفاجيء. ترى هل ندم هو الآخر على ما تبادلاه من كلمات ليلة أمس؟ هل استيقظ وهو راغب في بداية جديدة؟ لم تكن تتصور ذلك الجوع في عناقه. لقد نسي في لحظة من اللحظات الرجل الآخر كما حصل لها وهذا يعني بدون أدنى شك أن بلايك راغب في جعل زواجهما زواجاً حقيقياً وأنه أدرك أن من القسوة الاستمرار في إنكار ما يريدانه بقوة.. إن منزل المزرعة بمثابة البيت المؤهل لبداية جديدة.

حين أنهت طعامها نظفت المطبخ.. خرجت فإذا بها تجد أن الحقائب كلها قد أخرجت من الشقة. رافق غرانت بلايك إلى اللاندروفر. وفي هذه المرة صعد إلى المقعد الخلفي قبل صعود مارسي.. وعندما جاء دورها أمسك بمعصمها ليشدها إليه.

ـ ضع الأغراض الأخرى على المقعد الذي بقربك غرانت.. لأنني أريد الاستمتاع بصحبة زوجتي طوال الطريق.

ـ أفهم هذا تماماً..

ضحكته، ضحكة رجل لرجل. ولكن مارسي ضبطته أحياناً يختلس النظر إليهما. من الواضح أن زواجهما صدمة.. وربما يحس بالمهانة لأن بلايك أخفى عنه الأمر.

أثناء انشغال غرانت، استغل بلايك خلوتهما القصيرة. . فأمسك يد مارسي وشدها إليه ولكن لهجته في هذه المرة بدت متحفظة ورسمية تقريباً.

ـ النقاش الذي أردته بالأمس معك أفلت من يدي. . ثمة أمور نتباحثها بطريقة عقلانية. ولهذا سنذهب إلى المزرعة حيث الجو مناسب لمثل ذاك النقاش الذي يدور في ذهني. . سأقدّر لك الامتناع عن الأسئلة حتى نصبح على انفراد. . فأنا أفضل أن أترك حياتنا الخاصة طي الكتمان.

طمست كلماته آمالها مرة أخرى وأظهرت لها سبب ذاك الشغف الذي بادرها به. يا لقسوته!

ولأنها لم تشأ أن تقاسي هي وحدها، قوقعت نفسها بين ذراعيه وراحت تعانقه.

ـ كم تبعد المزرعة؟

تصاعد صدره وهبط بشكل ظاهر: «على مسافة ساعة من نيروبي».

ـ ما أروع هذا!

قالت كلماتها وأنفاسها تلفح وجهه، وما أشد ما كان رضاها عندما شعرت بجسده يتوتر.

قال لغرانت: «غرانت، هل تصحبنا أثناء خروجنا من المدينة إلى سوق الأعشاب الطبية في «بانتو» إذ لا أحب أن يفوت مارسي شيئاً؟».

كتب لها بلايك مرة عن السوق المحلية التي يباع فيها كل شيء، من جماجم القردة إلى لحم القنافذ المقلية. . .

وضمت نفسها إليه براحة. إن كانت الرحلة لا تبعث الرضى إلى نفسها فجلوسها قربه هو ما تنشده وما تريده. ها هي تشعر الآن بأنها تلك العروس الصغيرة المفعمة بالأمل، والتي تتظاهر بأخذ دورها.

* * *

٣ ـ الأمل الصريع

ترتفع هضبة «ما» تسعة آلاف قدم عن سطح البحر وتقع المزرعة على مستوى ستة آلاف قدم، حيث الهواء أقل كثافة. مرت بضع غيمات بيضاء فوق الرؤوس ومع ذلك كان صباحاً جميلاً منعشاً.

ما إن اقترب اللاندروڤر من وجهته حتى لاحظت مارسي غياب القرى وظهور مساحات من الغابات الخضراء الواسعة.

رفعت مارسي رأسها عن كتف بلايك العريضة لتتأمل قسمات وجهه الشبيهة بملامح الصقر. . كان يغط في النوم مسنداً رأسه إلى ظهر المقعد. . أدركت من خلال الظلال السوداء تحت جفنيه أنه تقلب في فراشه قلقاً طوال الليل، كما حصل لها. . بدا لها ضعيفاً، معرضاً للأخطار.

أحست بالسعادة لأنه بقربها كما تريد وتشتهي، فاستقرت عيناها على يديها المتشابكتين قرب خصره. فهو في منامه لم يترك يدها. بدت مرارة الليلة السابقة متلاشية ولكنها تعلم أن ما تراه الآن مؤقتاً.

استيقظ بلايك حين انعطف غرانت في منعطف حاد. شدت مارسي على يده، ونظرت إلى الخارج حيث الحقول المزروعة وحيث الأشجار المزهرة. اقتربت السيارة فرأت منزلاً أبيض كالثلج مبنياً على الطراز الهولندي.

ذكرها المنزل بمخازن الغلال التي تشاهدها في هامبشاير في

انكلترا.. وشرح لها بلايك أن مزارعاً هولندياً جاء إلى كينيا في أواخر القرن التاسع عشر، ودمج بين منزل المزرعة المحليّ الطراز المؤلف من طابق واحد، مع الطراز «الأمستردامي». كان السقف المثلث مركزاً فوق الباب الأمامي ويحتوي على علية. وكان تأثير منظره رائعاً.. أما ما وراء المنزل فشاهدت أبنية محاطة بزهور برية.

صاحت عندما أوقف غرانت السيارة:

ـ يا لجماله الباهر!

أبعد بلايك قبضته عنها، فترجلت من السيارة لتشاهد مملكتها الجديدة..

سحبت أنفاساً عميقة: «آه بلايك، لم أعرف أنه بهذا الجمال».

استرعى نظرها نافذة تواجه الغرب بزجاجها المشبوك بالحديد، حيث كانت ستائر حريرية تتطاير منها إلى الخارج.. لا شك أن بلايك أنجز الكثير منذ خطوبتهما.. غمرتها موجة جديدة من الحب.. وسعت عيناها إلى زوجها ولكنه كان مشغولاً في مساعدة غرانت على حمل الحقائب.

بقيت مارسي حيث هي بلا حراك تنعم بتأمل وجه هذا الرجل الطويل الأسمر ذي السلطة المتأصلة في نفسه. جالت عيناها عليه متلهفة إلى وجهه الحبيب.

قالت وهي تلتقط بعض المؤن من مؤخرة السيارة:

ـ لا أقوى صبراً على رؤية الداخل.

كانت تتضور شوقاً إلى ضمه بين ذراعيها ومع ذلك لم تجرؤ.. لقد أشعرها ما يقوم به لمساعدة غرانت بالرضى.. لم تكن راغبة في التدخل أو في التأثير في تقدمه، خاصة أمام رجل آخر.. وإن لم تكن عيناها تخدعانها، فقد بدا أنه يتحرك بتصميم كان يفتقر إليه بالأمس. ربما يتبنى هذا الجو من الثقة بالنفس أمام غرانت.. لكن النتائج

رائعة..

ـ مارسي؟

توقف بلايك في الشرفة عند المدخل:

ـ هل تعذرينني إن تركتك لأتكلم مع غرانت على انفراد قبل أن يعود إلى نيروبي؟ أعدك ألا نطيل الحديث.

تقدمت إليه تعانقه بقسوة:

ـ لا تقلق عليّ.. أموت شوقاً إلى رؤية المنزل.

ظهر غرانت في اللحظة التي كاد فيها بلايك يواجه مارسي التي ابتسمت للرجل:

ـ شكراً لك لأنك أوصلتنا إلى هنا سيد يونغ.. لا تعرف مدى امتناني لوصولي إلى منزلي.. والآن سأترككما لتتحدثا عن الأعمال.

رفعت نفسها على أطراف أصابعها لتقبل زوجها بخفة.

ـ أرجو أن تناديني غرانت سيدة سايمور فنحن لا نستخدم الرسميات في هذا المكان. سنرسل أنا وزوجتي لكما دعوة للعشاء في وقت قريب.. هذا إن كان يرغب بلايك في مشاركتك.

التفتت مارسي إلى زوجها: «سنترقب الدعوة بسرور، أليس كذلك بلايك؟».

رد بلايك: «قال طاهية ماهرة».

ضغطت مارسي يد زوجها، وأكملت المسير إلى داخل المنزل.

كان أول ما لفت نظرها مساحة المنزل الواسعة والجدران البيضاء التي برزت بسبب الخشب الأسود الرائع. إن هذا الديكور هو ما خططت له مع بلايك ولكن الواقع فاق الخيال.

تقع الردهة الأساسية قرب غرفة الجلوس والمكتبة أما إلى جهة اليمين فهناك غرفة الطعام التي يقع خلفها المطبخ وأما غرف النوم فكانت في الخلف.

عرفت مارسي أن بلايك قلب الأرض رأساً على عقب ليطلي الجدران بهذه السرعة.. كانت غرفة النوم الوحيدة المعدة للسكن غرفتهما. أحست بإثارة كبيرة وهي تتصور الداخل مكتملاً، واغرورقت عيناها بالدمع فلكم اشتاقت إلى هذه اللحظة..

شعرت بانفعال شديد وهي تجر حقيبتها الصغيرة إلى غرفة النوم الرئيسية.. كان للغرفة ستائر من الحرير المخرم على الطراز السويسري. وهذا دليل على أنه كان مهتماً بها حتى قبل وقت طويل من إعلان الخطوبة ففي أحد الأيام ذكرت أنها تحب هذا النوع من القماش وها هي تراه معلقاً أمامها.

غرقت في السرير المزدوج تنظر بذهول إلى ما حولها، تنظر إلى الخزانة الكبيرة ذات الأقسام الأربعة وإلى طاولة الزينة المثبتة إلى الجدران وإلى البساط الإفريقي الأصلي الذي اختاره بلايك أخضر زاهياً.

لفت نظرها صورة على طاولة الزينة. إنها إحدى الصور التي التقطها لها عندما زارها في (لوزان).. كانت تقف تحت قنطرة جرمانية في «شاتو دوشيلون». يومذاك كان شعرها الأسود طويلاً وفي ذاك اليوم طلب يدها.. لدى مارسي دزينة من الصور المفضلة لديها لبلايك، تريد أن تضيفها إلى تلك التي على طاولة الزينة.

فاجأتها غرفة النوم الأخرى.. فالجدران بحاجة إلى إصلاح.. فهناك آثار حريق لا تعرف متى وقع. لقد اشترى بلايك المنزل والمزرعة عندما قدم إلى كينيا ولكنه لم يباشر بالإصلاحات قبل أن يطلب يدها.. فكان أن بقي المنزل فارغاً عدة سنوات.

عرفت أن المطبخ سيكون مكانها المفضل ففيه موقد ضخم، مكسو بالسيراميك، وكسوة خزفية أصلية زرقاء تغطي أحد الجدران، منظرها جذاب بحيث تبدو أشبه بحي من أحياء أمستردام.

نظرت من النوافذ المقنطرة إلى مشهد خلاب هو لأشجار الفاكهة المزهرة، الممتدة على مد البصر.. لقد عثر بلايك على جنته في هذا المكان وقرر أن تشاركه إياه. سحبت نفساً عميقاً ثم نظرت لترى ما يمكن أن تفعله بداية. كان غرانت قد أدخل الصناديق المحتوية على الأطعمة المعلبة.

جُهِّز المطبخ بإمدادات صحية جديدة وصُقِلت الأرض الخشبية حتى أصبح لونها أصفر ضارباً إلى الحمرة. فكرت في أن بلايك، كان يسعى إلى الكمال. لقد أوجد غرفة مجهزة بأكفأ المعدات ثم أعاد إليها الدفء والحرارة والسحر الذي كان قد صممه مالكها الأول.. يا لسخرية القدر! كيف لرجل يملك هذا الذوق الفني الرفيع أن يفقد بصره..

عندما أفرغت مارسي محتويات الصناديق كان الوقت قد أصبح ظهراً. ولأنها أملت أن يكون بلايك قد استعاد شهيته، بدأت بتحضير الغداء، ثم تقدمت إلى المكتبة بحثاً عن الرجلين. لا شك أن غرانت بحاجة إلى الطعام قبل عودته إلى نايروبي.. لكن، حينما وصلت إلى الردهة الأمامية، سمعت صوت محرك اللاندروفر، وكان بلايك على وشك إقفال الباب الأمامي.

ـ بلايك، كنت قادمة لأقول لكما إن الغداء جاهز.

أجفله صوتها: «عليه العودة بسرعة.. وها نحن الآن وحدنا مارسي».

في صوته ما أرسل قشعريرة خوف إلى ظهرها.. فقد اختفى المحب المتودد الذي كان في الصباح..

قالت: «أخشى ألا يكون الغداء مثيراً للاهتمام.. ولكنني أعد بأن أنصفك في وجبة المساء».

حين لم يرد، ارتدت على عقبيها عائدة إلى المطبخ فلحق بها متحسساً الجدران، وهناك في المطبخ وجد كرسياً جلس عليه.

حركت طبقاً من الطعام أمامه قائلة:

ـ استخدمت ما تبقى من اللحم المعلب الذي أكلت منه بالأمس. أظنه لن يروقك.

ـ لا أهتم بما آكله.. أعرف أنك طباخة ماهرة، فتوقفي عن اللف والدوران.

ابتلعت رداً حاداً حين رأته يلتقط سندويشاً بدأ يلتهمه ولم يلتهمه فقط بل بدا مستمتعاً به يأكله بشهية واضحة وكانت قد بدأت تتساءل كم سيقوى على البقاء بدون طعام.

سألت تفتح الحديث معه: «هل أنهيت وغرانت بعض الأعمال؟».

ـ لسوء الحظ لا.. وجد أنك أهم من العمل فلم ينفك عن ذكرك.

سحبت نفساً عميقاً: «لماذا لم تخبره بزواجك؟ فقد وضعه عدم اطلاعه على الأمر في موقف حرج».

وضع الشوكة من يده..

ـ لقد تمَّ الزواج كما تعلمين بسرعة بحيث صعُب عليَّ إخبار الجميع وأضيفي إلى ذلك أنني كنت أريد تقديمك إلى كافة الموظفين في حفل استقبال رسمي في المزرعة. أما الآن فلا أريد الخوض في هذا الموضوع.

نظرت مارسي إلى زوجها غير قادرة على فهم مزاجه:

ـ كل شيء جميل هنا. لا أكاد أصدق عينيّ.

قست قسمات وجهه:

ـ وفّري هذا مارسي.. الآن بعدما زالت الخطوات التمهيدية من الطريق، أريد محادثتك ولكنني قبل ذلك أريد وعداً بألا تقاطعيني حتى أنتهي.

ـ لك وعدي.

قال بصوت كئيب: «آمل أن تلتزمي به لأنني أخشى ألا يعجبك ما سأقول.. حين وصلت إلى غرفتي في المستشفى يوم أمس، كنت على وشك أن أخنقك بيدي الاثنتين».

جعلها الحقد في صوته ترتجف، ونظرت إلى طبقها الفارغ.. كيف له أن يتغير من محب إلى مبغض بهذه السرعة؟

ـ صدقتك حين قلت إنك لم تستلمي رسالتي.. مع أنني أعتقد أن الرسالة ما كانت ستؤثر فيك بل كنت ستقلبين الدنيا رأساً على عقب حتى تتكلمي إليّ.

أكمل بلهجة ساخرة كريهة: «كان مجيئك إلى المستشفى بهذه الطريقة سبباً في خلق المزيد من الخطر عليك وعليّ وعلى شركتي».

رفعت رأسها عالياً: «ماذا؟».

ـ لقد وعدتني.

ارتجف جسم مارسي ولم يتوقف عن الارتجاف.

أبعد بلايك نفسه عن الطاولة ثم عقد ذراعيه على صدره.

ـ لدي عدو مارسي.. شخص من الشركة يحاول تدميري. ولربما نجح في هذا.. كان انهيار المنجم تخريباً مقصوداً أما نتائجه فقتيلان وفقداني البصر.

لم تحرك مارسي عضلة من جسمها.. لكن ما تسمعه جعل عينيها بحيرتين من الحبر الأرجواني.

ـ عقّد وصولك الأمور، لأنه أصبح بمقدور عدوي استخدامك هدفاً. ومن المؤسف أن غرانت اتصل بالطبيب هذا الصباح ليسأل عن حالتي فعرف بوصول زوجتي.. لا شك الآن أن الخبر قد انتشر في أرجاء نايروبي. بما أنني أعرفك، أعرف أنك شاهدت غرفة النوم الخلفية.. لقد أشعل أحدهم فيها النار قبل زواجنا بليلة وكان الحريق

أحد الأسباب التي قطعت علينا شهر العسل. عزوت الحريق إلى أحد عمال البستان الناقمين ولكنني لم أشأ أن أخاطر بتكرار ما حدث بعد وصولك للسكن هنا. أملت أن أصلح الغرفة وأن أقبض على الفاعل.. ولكننا كنا نواجه مشاكل في المنجم في الوقت نفسه، وتفاقمت المشاكل، أما الباقي فتعرفينه.

توقف هنيهة عن الكلام ثم أردف:

ـ عندما تقع كارثة منجم، يجتمع مجلس للتحقيق في الأمر وإن أثبتوا أن السبب الإهمال سحبوا رخصة الشركة فإن حدث هذا حرمت من العمل في كينيا بل ربما حُرمت من العمل في القارة الإفريقية كلها.

سمعته يتنهد تنهيدة عميقة تثير الشفقة:

ـ عندما فقدت بصري اتضح لي أنني المستهدف ومما لا شك فيه أن المسؤول عن إصابتي مسرور بما جرى لي. ولكن، ما لا يعرفه هو والجماعة التي تدعمه أنني أنوي محاربتهم.. لدي شركة ضخمة تعيل مئات العائلات الذين لن أخذلهم ما دام فيَّ رمق من حياة. إن هذا النوع من الحوادث يمهر المناجم بسمعة سيئة في كينيا.

تأملت مارسي زوجها مذهولة بما تسمع. لم يكن لديها فكرة عن هذا.. أبداً.

نظر إليها، وكأنه يراها فعلاً، وقال: «ليتني لم أتزوجك».

كان صوته قاسياً وخالياً من الادّعاء:

ـ أريد إبطال الزواج في أسرع وقت ممكن. ولكنني الآن أريد منك خدمة أولاً.

ساد الصمت الغرفة للحظات طويلة فقد شتت موقفه البائس أحلامها الوردية وخدَّر جسمها بحيث لم تستطع الكلام.

ـ مارسي؟

نبض عرق صغير في زاوية فمه.

سحبت نفساً عميقاً: «طلبت ألا أقاطعك».

ـ لقد اتصلت بكارل هيريون من المستشفى حالما استطعت التفكير بوضوح، ووافق على إيقاف أعماله حتى يأتي إلى هنا ليمثلني.

ـ شكراً لله!

لم تتمكن من منع نفسها عن الكلام.. فإذا كان هناك من يستطيع مساعدة بلايك، فهو كارل الذي يكبر زوجها بعشرين سنة والذي كان أشبين زواجهما.

ـ ليست الاستعانة بكارل ضمانة مارسي ولكنه الشخص الوحيد الذي أثق به، والذي يقدر على تفسير هذا الكابوس، ولقد تحادثنا أكثر من مرة هاتفياً وخططنا لما سنفعل.. ولكن وصولك غيّر مجرى الأمور.

صمت وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة:

ـ ما كان يعرف أحد بأمر زواجنا وكان في نيتي إقامة حفل استقبال رسمي لإعلان الزواج بعد عودتنا من شهر العسل ولكن الحادثة أوقفت كل شيء.. ولم أشأ أن يعرف مخلوق أنني متزوج لأن من يريد بي سوءاً قد يستغلك وسيلة للانتقام مني.. فالزوجة تجعل الرجل ضعيفاً. ونظراً للظروف لم أرغب في مجيئك وذلك من أجلك ومن أجلي.

فهمت مارسي أموراً كثيرة ولم تستطع البقاء جالسة، فوقفت على قدميها:

ـ هل شرحت لي هذا كله في رسالتك؟

ـ أجل إنما بشكل مقتضب.

ـ أنت تعني بكلمات أخرى أن وصولي إلى هنا وضع في أيديهم سوطاً آخر.

واختنق صوتها فهي بحاجة إلى المزيد من الوقت لتنظر إلى الموقف من هذا المنظور الجديد.

دعك مؤخرة عنقه: «بالضبط، بعدما أويت إلى فراشك ليلة أمس اتصلت بكارل لأعلمه بوصولك، ووافق على أن السر قد انكشف ثم اقترح علي تغيير الخطة».

حبست ماري أنفاسها: ماذا يقول؟

ـ لو عدت إلى لندن الآن لساءت الأمور ولشاع بين الناس أن زوجتي هربت مني عندما علمت بأن الخطر يحدق بي وإشاعة كهذه ستقع على رأسي كالكارثة إذ ستقوم جبهة متحدة عائلية على بث النقمة في نفوس العائلات التي تعتمد عليّ، فللزوجة تأثير كبير في زوجها.

ـ لم أقصد تعقيد مشاكلك.

نهض عن الكرسي ليتقدم إلى الأمام:

ـ ما حصل حصل. ولكن ما يساعدني في هذه المرحلة أن لا أحد سوى كارل يعرف بأنني أشك في مؤامرة تحاك ضدي وإن ظل عدوي على جهله هذا لاستطاع كارل القيام ببعض التحقيقات الخاصة.

التفت أصابعه على قبضة السكين.

ـ وهذا يقتضي منا الاستقرار والتنعم بالزواج.. عليّ أن أمثل دور العريس المفتون أمام الجميع، وسيصدق الجميع أنني لا أحمل هماً خاصة وأن بين ذراعي أحمل عروسي. سيكون زواجنا اسمياً فقط مارسي غير أنه لن يعرف أحد سوانا وسوى كارل بذلك.

تصاعدت المرارة إلى حلقها:

ـ طبعاً.

ضاقت عيناه: «في الأسبوع القادم يصل كارل الذي سيكون ضيفاً علينا هنا في الشقة».

نظرت مارسي أمامها مباشرة: «فهمت».

ـ ستكثر التساؤلات لو ظهرت في المكتب وبقيت أنت هنا في المزرعة.. غرانت يعرف أننا هنا وحدنا، ومن رنة صوته، أعرف التأثير

الذي تركه وجودك فيه. هو عادة غير هادىء هكذا، لقد قال لي إنه لو كان لدي عقل، لبقيت معك هنا في سبات عميق.. بعد ساعة سيعلم من في المكتب أنني أستمتع بشهر العسل. إن القرار الآن قرارك.. فهل ما أطلبه منك كثير عليّ يا مارسي؟

أرادت أن تصيح: أجل!

إنه يجلس هنا قريباً منها وبعيداً عنها في آن واحد فكيف تتحمل ذلك؟ أتحبه إلى درجة التضحية بحاجاتها الشخصية؟ ارتجفت شفتاها وهي تحاول إيجاد الكلمات المناسبة.. ألم تكن راغبة في أن تكون زوجته تحت أية ظروف؟ أتسخر منها الأقدار الآن؟

نظرت مارسي إلى الرجل الذي يملك قلبها في راحة يده، وتصاعدت المشاعر في صدرها بسبب ما ترى على وجهه من كآبة سوداء. هل الوقت كفيل بتحطيم مقاومته؟ لقد أحبها حباً كبيراً دفعه إلى الزواج بها.

ـ أفهم أن أمامك شركة تفكر فيها.. والآن بعدما شرحت لي الأمور أنا مستعدة لتقديم يد العون.

تعالى صدره متنفساً الصعداء:

ـ شكراً لك مارسي.. سأتخذ الاحتياطات اللازمة لحمايتك وعندما ينتهي الأمر سأعوضك عن كل شيء.

أوشكت أن تقول له إن هناك طريقة واحدة للتعويض عليها ولكنها قالت:

ـ والآن هل تسمح لي بالاستحمام؟

ـ سيكون هذا المنزل منزلك ما دمت فيه. افعلي فيه ما شئت لذا لا داعي إلى استئذاني في شيء إنما هناك شيء واحد أطلبه منك.

ارتفع رأس مارسي وهو يمد يده إلى جيب قميصه:

ـ من المهم أن يظهر زواجنا حقيقياً لذا فأنا مضطر إلى وضع هذين

الخاتمين في إصبعك..

ووضعهما على الطاولة.

ـ أنا في المكتبة إن احتجتني.

وترك المطبخ متلمساً طريقه بواسطة الجدار.

التقط الحجر الكريم أشعة الشمس، فتشظّى منه على السقف آلاف أقواس قزح.. فهمت الآن سبب تمسك بلايك بيدها اليسرى طوال الطريق إلى المزرعة.. فهو لم يجرؤ على أن يلاحظ غرانت وضع علاقتهما على حقيقتها.

فتحت مارسي يدها ودست الخاتمين في مكانهما.. لقد سبق أن ندمت على تصرفها في الليلة السابقة.. ولو كان لها ما أرادت، لما خلعتهما أبداً.

بعد غسل الصحون، سارعت إلى الحمام الملحق بغرفة نومهما، فاستحمت بسرعة.. ثم راحت تجفف جسمها بالمنشفة وبعد ذلك ارتدت جينزاً وقميصاً قطنياً. ثم ما لبثت أن أبعدت شعرها عن عينيها فضفرته، ثم رمته على كتفها..

أمضت جزءاً من العصر في توزيع الحقائب وفي تعليق الثياب في الخزانة. ما إن انتهت من تفريغ أغراضها حتى توجهت إلى المطبخ لتعدّ عشاءً خاصاً. كانت تحس براحة لأن بلايك موجود على بعد أمتار منها لا على بعد آلاف الأميال في قارة أخرى.

فكرّت أن كارل لن يستطيع الوصول إلى هنا بالسرعة المطلوبة.. وبلايك يحتاج إلى مساعدة يائسة.. كانت سعيدة لأن غرانت يونغ يدعمه لكنها فكرت لماذا لم يأت على ذكر ريتشي شادويك، وهو أحد المديرين الآخرين من الشركة. تعود صداقتهما إلى مقاعد الدراسة الجامعية، التقت مارسي مرة في لندن بريتشي في حفلة أقيمت في منزل عائلة سايمور ويومذاك رأت أن صداقة الرجلين حميمة. ومع ذلك،

طلب بلايك من كارل أن يكون شاهد زواجه الأول، وحين سألته عن سبب هذا الاختيار قال لها إن ريتشي لا يستطيع المجيء. وقتذاك لم يرضها الرد المبهم ولكنها كانت مشغولة بحيث لم تعلق على الأمر. أما الآن، وبعد أن استقرا في المزرعة فقد تجد الفرصة المناسبة لتسأل بلايك عن ريتشي.

ارتدت للعشاء فستاناً من اللينو الأصفر الخفيف الوزن، وسرحت شعرها فوق كتف واحد، ثم وضعت القرط الذهبي الذي أهداها إياه في العام السابق. تعلم أنه لا يستطيع رؤيتها ولكنها تشعر بأنها أفضل حالاً عندما تكون أنيقة.

ـ بلايك..؟ العشاء جاهز.

كان يجلس على كرسي دوار وراء مكتبه الضخم يسجّل صوته على آلة تسجيل.

ـ لا أهتم كثيراً بالطعام.. تناولي العشاء بدوني.

قالت بإصرار: «إنه عشاء خفيف، وأنت بحاجة للراحة».

فرك عينيه براحتيه.. وبدا متعباً: «أنتظر مكالمة هامة».

ـ انتظرها في المطبخ.. سأخرج صينية الطعام من الفرن فلا تتأخر.

ارتدت على عقبيها خارجة وراحت تترقب قدومه.

كانت السلطة الخضراء، مع الخل والثوم، جاهزة في البراد، إضافة إلى إبريق من عصير الأناناس. بعد إخراجها لصينية الطعام من الفرن، خرجت إلى الحديقة لتقطف باقة من الزهور البرية وضعتها بكل أناقة في مزهرية من البورسلان الأبيض.

مرت الدقائق فشعرت بأن البهجة التي اعتملت قلبها في وقت سابق قد خبت بعد أن بدأت بتناول السلطة وحيدة.

عندما ظهر بلايك فجأة في المطبخ خفق قلبها خفقات سريعة. لقد

قرر أخيراً الانضمام إليها، وليس عليها إلا أن تمنع نفسها من الوثوب عليه لاحتضانه..

قال وهو يجلس في الكرسي الذي استخدمه وقت الغداء:

ـ لقد وضعت الزهور على الطاولة، أشم رائحة النعناع البري.

ـ أجل.. والأضاليا والبتونيا كذلك والمنثور والحبق.. أوه.. بلايك.. هناك مكان رائع لزراعة الأعشاب خارج نافذة المطبخ.. وسيكون الزرع بهجة لنفسي.

تمتم يلتقط شوكته: «تبدين سعيدة مارسي».

لكن نظرة مضطربة كانت تتقاطع على وجهه.

ـ ولماذا لا أكون سعيدة؟ لقد حولت الحديقة إلى مكان يخطف الإعجاب. لا أستغرب سبب عدم رغبتك في العودة إلى إنكلترا.. لا أقوى صبراً على استكشاف الأملاك.. دعنا نخرج في نزهة على ظهور الخيل في الصباح.

ابتلع أول لقمة له من الطعام ثم قال: «هذا مستحيل».

ـ لماذا؟ قال الطبيب هارمان إنك في صحة جيدة، وإنك قادر على متابعة نشاطك العادي.. أضف إلى ذلك اشتياق جوادك «دياولو» إليك. أنا واثقة أنه بحاجة إلى التمرين..

شد على شفتيه حتى أصبحتا خطاً رفيعاً، وعادت إلى وجهه نظرة التشتت والضياع:

ـ يعتني مدير المزرعة بالخيول مارسي.. إن كنت ترغبين في التنزه فخذي سيارة الجيب وقوديها على الطرق المتشابكة بين بساتين البرتقال.

ـ لكنني أفضل ركوب الخيل. سأطلب تحضير «دياولو».

ـ دياولو شرس جداً..

ـ إذن رافقني على أن أركب على الجواد أمامك. ألم نفعل ذلك

عشرات المرات.. سنسير ببطء. هل هذا الطلب صعب؟

ساد صمت مطبق قبل أن يمد يده إلى كوب العصير ويشمّه، وقال معلقاً:

ـ توقعت عصير البرتقال، فليس لدينا أناناس.

ـ وجدت علبة أناناس بين المعلبات، فأردت أن أقدمها مع الطعام احتفاء بأول عشاء نتعشاه بمفردنا في منزلنا الجديد.

التمع خداه بحمرة قاتمة:

ـ كما قلت لك سابقاً، أنت موهوبة في المطبخ.. كل شيء لذيذ، كالعادة.

دفعت طبقها الذي لم تنهه بعد:

ـ شكراً لك.. أتحب أن تصغي إلى بعض الموسيقى بعد العشاء؟ حملت معي شريطاً مسجلاً لكونسرتو براهمز.. وأظنك ستحب عزف غرافمان لها.

ـ ليس الليلة مارسي.

هبت عن المائدة قائلة بلهجة خفيفة: «ماذا تريد أن تتناول بعد العشاء؟ التين أم المانغا؟».

ـ لا أريد شيئاً لي.

نظرت إلى كوب قهوته الفارغ ثم تقدمت إليه لتملأه من جديد. تدلى عن غير قصد منها شعرها فلامس خده. عندئذ سمعت تسارع أنفاسه قبل أن يقف فجأة على غير توقع، ليرمي فوطة المائدة على الطاولة، فانسكب كوب العصير.. وقال متمتماً:

ـ تصبحين على خير.

اصطدمت كتفه في غمرة عجلته بإطار الباب فراح يشتم. بعد انتهاء غسل الصحون، مرت مارسي بالمكتبة، ووجدت ما كانت تخشاه. الأريكة المواجهة لمكتبه معدة كفراش، ربما ساعده مدير

www.liilas.com (doode al yaloo)

المزرعة في تحضيرها، كان مستلقياً تحت الغطاء، وإن لم يكن نائماً، فقد تظاهر بأنه نائم. تابعت المسير على رؤوس أصابعها إلى غرفتهما وحضرت الفراش. ألن يتنازل أبداً ويتركها تقدّم له يد المساعدة.. ألن يتركها تمنحه الراحة التي تتمنى أن تمطره بها؟ بللت الدموع الساخنة وسادتها.. يا لسخرية الأقدار التي جعلتها تنتظر ثلاث سنوات لتصبح زوجته ثم تجد نفسها بعد تلك المدة وذاك الانتظار وحيدة في فراشه تحس بفراغ وضياع لم يسبق أن شعرت بمثلهما قط.

* * *

٤ ـ حريق تحت المطر

أيقظ طرق خفيف على باب غرفة النوم مارسي من سبات عميق.. ولكنها لمّا ألقت نظرة إلى الساعة وجدت أن الوقت تجاوز العاشرة صباحاً فلم تصدق أنها نامت حتى هذا الوقت المتأخر. جلست في السرير، تدفع شعرها إلى الوراء: «بلايك؟ هل أنت بحاجة إلى شيء؟»

قال من وراء الباب: «يؤسفني إزعاجك ولكنني خارج بعد بضع دقائق، ولا أريد أن تستيقظي لتقلقي عليّ».

نهضت من السرير بسرعة وتوجهت إلى الباب تفتحه:

ـ ظننتك لا تريدالظهور في المكتب.

ـ لن أذهب إلى نايروبي.

ـ إلى أين إذن؟

ـ سأزور عائلتي الرجلين اللذين قتلا خلال انهيار المنجم.. لم أستطع حضور جنازتهما وهما يعيشان في قرية «بانتو».

ـ وكيف ستصل إلى هناك؟

ـ بالسيارة طبعاً.

بدا في صوته الساخر المزاح الذي دفن في نفسه منذ الحادثة.

ـ أعني من سيقود السيارة؟

ـ كورتني.. مدير المزرعة.

ـ دعني أرافقك بنفسي.

ـ لا مارسي.. قلت لك إنني أريد أن تظلي بعيدة عن الأنظار حتى نصل إلى نتيجة.

ـ ولكن ما الضرر في مرافقتك؟ أليس من الأفضل أن تشاهدك العائلتان المفجوعتان مع زوجتك؟ وهناك مسألة أخرى وهي معرفتهم بأمر زواجنا فإن ذهبت بدوني بدا من الغرابة عدم مرافقتي لك. أرجوك بلايك.. أريد الخروج لأرى شيئاً من هذه البلاد.. ما الضير في هذا؟

بدت عليه نظرة جافة، نظرة رجل فقد صبره.

ـ يجب أن أذهب قبل تساقط المطر لأن الطريق بعد سقوط الأمطار تصبح مستنقعاً.

ـ سأكون جاهزة في بضع دقائق.

مرر يده البرونزية في شعره:

ـ احملي معك كنزة فالهواء يبرد كلما ارتفعنا، خاصة إذا رافق الضباب المطر.

أغمضت عينيها، مسرورة بشكل غير عادي لموافقته على اصطحابها.

ـ سأسرع!

ـ أعددت القهوة والتوست.. الأفضل أن تأكلي شيئاً أولاً.. وفيما تحضرين نفسك سأطلب من كورتني جلب الجيب إلى أمام المنزل.

بعد حمام سريع، ارتدت الجينز وبلوزة زرقاء شاحبة عززتها بكنزة اسكندنافية الطراز. بعد ذلك سرحت شعرها حتى استقر على كتفيها..

رأت السحب الخفيفة البيضاء التي شاهدتها بالأمس تزيّن السماء عندما أخرجت الجيب من طريق المزرعة إلى طريق رئيسية معبدة. إنها معتادة على قيادة اللاندروفر والشاحنات التي تجر وراءها المركبات في مزرعة والدها.

ـ هل نستدير إلى اليسار الآن بلايك؟

هزَّ رأسه: «سيري في هذا الطريق تسعة عشر ميلاً ثم لمَّا تصلين إلى مفترق طرق أعطك التوجيهات الأخرى. هل تأكدت من الوقود؟»

ـ تشير الإشارة إلى أنها ممتلئة.

ـ عظيم.. هيا بنا.

شاهدت المزيد من المناظر التي رأتها بالأمس فها هي أميال من الغابات الخضراء. لم تشاهد حتى الآن ناساً وهذا ما أشعرها بالعزلة ولكن وجود زوجها معها طمأن قلبها فهي عندما تكون مع بلايك مستعدة لمواجهة كل المخاطر ولا يغير إحساسها هذا شيء حتى عماه. ولكن ليته يتفهمها.

كانا قد اجتازا حوالي عشرة أميال فوق الطريق الرئيسية عندما سمعت مارسي صوتاً كدوي الرعد. عرف بلايك ما تفكر فيه فوجَّه رأسه إليها:

ـ لا تجزعي! ثمة قطيع من الغزلان يرعى في هذا الجانب من الغابة إضافة إلى حمار وحشي وإلى حيوانات أخرى.

تنهدت مارسي: «هل هناك ما يجب أن أعرفه أيضاً؟»

طاف شبح ابتسامة حول شفتيه الجميلتين.

ـ لن نلتقي الأسود أو الفهود في هذا الجزء من الغابة لأن تلك الحيوانات تفضل الأراضي الجافة الشائكة الواسعة.. إن رغبت في رؤية هذا النوع من الحياة البرية المتوحشة فعليك بزيارة محمية «ماساي الباسولي».

أراحها تعليقه الذي أراد منه بعث الطمأنينة إليها ولو أطاعت تهورها لأوقفت السيارة ولعانقته بشغف على قارعة الطريق.. لكنها لا تريد البدء بما يعود عليها بالضرر فهي لا تريد إفساد هذه الرحلة.

عندما وصلا إلى النقطة التي أشار إليها شاهدت مارسي مرتفعاً صخرياً أجرد ثم لاحظت انخفاضاً طفيفاً في حرارة الجو بسبب الغيوم

التي كانت تتلبد استعداداً للعاصفة.

- إن أمعنت النظر مارسي رأيت ممراً بين الطريق التي نحن فيها وبين الطريق التي تستدير إلى اليسار.. اتخذي هذه الطريق رأساً إلى الغابة لأننا بعد خمسة أميال ستطالعنا أكواخ متعددة.

لم تشاهد الممر الترابي إلا عندما أشار بلايك إليه بيده..

اجتازت مارسي الطريق الرئيسية نحو الممر الذي لا يستحق أن يطلق عليه اسم طريق. لم تكد تراه بسبب العشب المرتفع وبسبب الغيوم المتلبدة التي جعلت الغابة مظلمة وكأنما أسدل الليل سدوله.

قالت: «حدثني عن الرجلين اللذين قتلا».

نقل بلايك ثقله من جانب إلى آخر فوق المقعد.

- كانا عاملين نشيطين باشرا العمل معي عندما افتتحت منجم «نايڤانا» فغالباً ما يمر بكينيا مواسم جفاف.. وهذا ما يجبر الرجال على التفتيش عن عمل آخر.

صمت قليلاً ثم أردف:

- قرر هذان الرجلان تعلم صناعة المناجم، وبقيا فيها لأنها كانت تعني لهما راتباً ثابتاً ورعاية طبية، إضافة إلى منحة نهاية الخدمة. أما سبب زيارتي لزوجتيهما فتقديم العزاء وشرح أن الشركة ستدفع لهما معاش التقاعد كاملاً.

نظرت مارسي إليه مفكرة.. إنه كريم حقاً. ولكن كيف لإنسان أن يحقد على بلايك وأن يحسده على نجاحه؟ راحت تتضرع إلى الله حتى يقع المسؤول عن الانهيار في قبضة العدالة.

وصلت بهما السيارة إلى مساحة فيها عشرات الأكواخ وطالعتهما جماعة من الأطفال المرتدين الثياب القطنية البراقة اللون.

صاح بلايك من النافذة: «جامبو».

فردوا عليه بلغتهم ثم تبادلوا معه الحديث، فسألت:

- ماذا تقول لهم؟

- ذكرت للأولاد سبب مجيئي، وطلبت منهم إخبار المرأتين.. فالنساء هنا خجولات، ومن الأفضل تركهن يقمن بالخطوة الأولى.

راقبت مارسي بإعجاب ذاهل الأطفال يركضون ويتحدثون فيما بينهم.. ولم يطل الوقت حتى عادوا وعندها دار حديث آخر بينهم وعندما عبس بلايك فهمت مارسي أن هناك خطباً ما.

- ما الأمر بلايك؟

- يقولون إنه غير مرحب بي هنا.. فالنسوة لن يكلمن قاتلاً.. هذا ما كنت أخشاه.

- وهل يتكلمون الإنكليزية؟

هز رأسه، فأكملت:

- إذن ربما تكلمت معهما.. هل يعرفن أنك فقدت بصرك في الحادثة؟ قد يكون لهذا تأثير في مشاعرهن.

- انسي هذا الأمر مارسي.

- بلايك، ألا تفهم أنهما مفجوعتان؟ إن فهمتا أن مصابنا واحد أصغتا إليك. ألا يستحق الأمر المحاولة؟

ضرب يده على ساقه ساخطاً:

- ما كان عليّ اصطحابك إلى هنا، فأنت زوجتي، وهذا يعني أنك نذير سوء طالع.

- لن يكون هذا شعورهما إذا ما تحدثت إليهما. لقد جئت إلى هذا المكان لتقديم العزاء وعليك تقديمه.

مد يده بسرعة البرق ليمسك بمعصمها:

- اسمعي مارسي.. تشعر الزوجتان بالعداء تجاهي. أنت لا تعرفين عادات أهل البلد أو معتقداتهم لذا أرفض أن أضعك في موقف حرج.

اشتدت قبضته، ووضعت يدها الأخرى فوق يده: «اسأل الأولاد

إن كانت المرأتان مستعدتين للتحدث إليّ».

ترك معصمها ثم راح يتحدث إلى الأولاد الذين سرعان ما ركضوا.

لم يطل الوقت حتى عاد الأولاد مرة أخرى، وأشار المتحدث باسمهم إلى مارسي:

ـ أنت تدخلين أما أنت فلا..

قال بلايك بسرعة: «لا يعجبني هذا مارسي.. أفضل ألا تذهبي».

خفق قلبها بعنف: «أريد الذهاب.. أعترف أنني متوترة، ولكن لدي فكرة عن مشاعر المرأتين».

طغى على وجهه تعبير قلق:

ـ عند أول دليل على المتاعب.. ابدئي الصراخ ولا تتوقفي.

ـ أعدك.

ترجلت من الجيب قبل أن يغير رأيه، ولحقت الأطفال إلى أحد الأكواخ.. وفيما كانت تدور حول المكان، خرجت امرأة ترتدي فستاناً ملوناً وهي تحمل طفلاً وتمسك طفلاً آخر بيد ثانية. ثم وقفت امرأة أخرى بالباب.. عيونهما السوداء تحدقان إليها بدون ترحيب ومع ذلك لم تشعر مارسي بالخوف، بل شعرت بالأسى عليهما..

بدأت تقول وهي تضع يديها في جيبي سروالها.

ـ أنا مارسي سايمور.

لم تردا.. وتنحنحت..

ـ أعرف أن زوجيكما قد رحلا إلى الأبد، ولكن زوجي يريدكما أن تعرفا أن الشركة ستدفع لكما أجرهما حتى آخر العمر.

وقفت المرأتان بلا حراك.. ولم يكن لديها فكرة عما إذا كانتا قد فهمتاها:

ـ نعم ما زال زوجي حياً ولكن الحادثة أذته كثيراً فقد فقد بصره ولأنه فقد بصره يظن أنه رجل غير كامل، ولأنه لا يظن نفسه رجلاً،

يريد أن يعيدني إلى بلادي، ليبعدني عنه.. أما أنا فأريد البقاء، لأنني أحبه، كما أحببتما زوجيكما..

تقدمت المرأة الواقفة في الباب خطوة. فتنفست مارسي الصعداء وأردفت:

ـ زوجي يتعذب وإن تركتماه يساعدكما خففتما عنه ما يشعر به. لم يستطع المجيء قبل الآن، لأنه ظل في المستشفى حتى الأمس. وكان أول ما أراد القيام به هذا الصباح هو مقابلتكما للتأكد من سلامتكما وليقول لكما ألا تقلقا بشأن المال.

قالت إحدى الزوجتين:

ـ يقول بعض الناس إن الحادثة وقعت بسببه.

ـ أيعقل بأن يكون هو السبب في حادثة تودي بعينيه؟

حدقت مارسي إلى المرأة بقوة حتى أشاحت المرأة بوجهها.

ـ إنه يحاول البحث عن المسبب وحين يجده فسيتأكد من إنزال العقاب به.

سألت المرأة الأخرى: «وأين أولادك؟»

ابتلعت مارسي ريقها بشدّة:

ـ لن يكون لي أولاد ما دام زوجي قلقاً عليكما وعلى الشركة.

تبادلت المرأتان النظرات ثم قالتا:

ـ أترغبين في الأولاد؟

أجابت بلهفة: «كثيراً جداً.. أريد أبناء وبنات، رائعين كأولادكما».

ـ ألا يرى زوجك عينيك؟

ـ لا.. فهو يعيش في ظلام دامس.

ابتسمت المرأة الأخرى: «ولكنه لا يحتاج إلى النظر لينجب الأطفال».

ـ أنت على حق. لكن السيد سايمور رجل فخور.. أتعرفين ما يعني هذا؟

هزت المرأتان رأسيهما بتفهم.

ـ السيد سايمور في السيارة.. وهو يريد أن يتحدث إليكما عن مسألة المال بنفسه، فهل تلحقان بي؟

عادت مارسي إلى الجيب بدون أن تنتظرهما. كان بلايك واقف أمام مقدمته وذراعاه معقودتان على صدره.

تمتمت له وهي تضع يدها على ذراعه:

ـ سارت الأمور على ما يرام بلايك.

زال بعض التوتر من جسده حين لامسته، ثم رأته يلف ذراعه حول كتفيها بطريقة عفوية.

لم تكن المرأتان بعيدتين عنهما وسرعان ما راحتا تكلمانه بلغتهما فرد عليهما بحرارة ثم ما لبث أن طال الحديث. لم تحتج مارسي إلى الترجمة، لأن ما يشعر به بلايك واضح في عينيه وحركاته.. أخرج مغلفين من جيب قميصه، وحثهما على أخذ المال.. بعد تردد يسير، قبلتاه.

اشتدت يد بلايك على كتفها:

ـ يبدو أنهما معجبتان بك، وقد دعتانا لتناول الطعام.. لا نستطيع أن نرفض..

تمتم من بين أسنانه لئلا يسمعه أحد سواها: «تذوقي كل ما يقدمونه».

في تصرفه ما أوحى لها بأنها ستواجه مفاجأة، ثم شعرت بأنه يجد الموقف مسلياً، فوضعت ذراعها حول خصره.

ـ سآكل كل ما تأكله أنت.

جلس بلايك على الأرض الصلبة ثم جذب مارسي لتجلس إلى

جانبه.. سرعان ما وضعت أمامهما أطباق خشبية مع أدوات طعام، وملأت الأطباق بأنواع من الطعام لم تتعرف مارسي على شيء منها.

ـ علينا أن نغادر المكان حالاً فأنا أشمّ رائحة المطر..

بعدما أنهيا طعامهما، شرحا للمرأتين أن عليهما الرحيل قبل هبوط العاصفة..

سقطت أول قطرة ماء على زجاج السيارة عندما أدارت مارسي المحرك.. ثم ما لبث أن تدفق المطر بغزارة حتى قبل أن تتقدم ميلاً واحداً.. لم يبالغ بلايك فيما قاله إذ كان تحت العشب الخفيف مستنقع من الأوحال الكثيفة. مضت السيارة وكأنها تسير فوق ساحة تزلج، وكان كل ما استطاعت فعله هو منع الجيب من الانحراف عن الطريق.

قالت، والذعر في صوتها: «أجدني غير قادرة على السيطرة على السيارة».

ـ في هذه الحالة توقفي جانباً، وأطفئي المحرك.. سننتظر حتى تذهب موجة المطر.

ردت بارتباك: «سأحاول».

ولكن عندما حاولت دار الجيب فيهما نصف دائرة فعمدت إلى تصحيح مسارها ولكنها أخطأت في توجيهها وأصبحت فجأة خارج الطريق.

صاحت: «بلايك.. سنتهشم!»

قبل هنيهة من الاصطدام، أحست مارسي بذراعيه تضمانها وتخبئان وجهها.. وأخذت تنتظر تحطم الزجاج ولكنها لم تسمع إلا صوت الأشواك التي حفت بالسيارة.

تمتم بلايك بصوت أجش، ضاماً جسمها إليه بشدة ليوقف ارتجافها:

ـ نحن بخير مارسي.. ولكننا عالقان في غيضة من أشجار الصنوبر.

سرت رجفة في جسدها، وتعلقت به:

ـ لم أخف قط كما خفت الآن.

ـ هس.. لقد انتهى الأمر.. لا تفكري في ما جرى.

ثم انحنى إليها يعانقها بشوق يصعب عدم التجاوب معه.. أشعلت الحادثة مشاعرهما.. ولم تستطع مارسي الحصول على ما يكفي منه فأن تكون بين ذراعيه لأمرٍ تجاوز أحلامها وذكرياتها.

همست «أحبك» ثم راحت تبادله عناقه بشغف مضاعف.

فجأة سحب نفساً عميقاً ثم ارتد إلى الوراء مبعداً إياها عنه.

ـ أرى أنك استعدت وعيك من حادثتنا الصغيرة.. سأخرج الآن، لأعرف إلى أي مدى انغرزت السيارة في الوحل.

احتاجت مارسي إلى دقائق لتستجمع شتات نفسها.. فانتقالها الفظ من الجنة إلى الواقع صدمة فاقت صدمة الحادثة.. ربما أراد فقط تطمينها ولكن شغف عناقه البدائي أشعل نيران عواطفها وحوّلها إلى حريق ملتهب..

كان المطر ما يزال منهمراً حين صعد بلايك إلى الجيب. خلع سترته الواقية من المطر ورماها إلى الخلف، ثم مسح يديه الموحلتين بمنديل ورقي قدمته له مارسي:

ـ نحن عالقان حتى يتوقف المطر.. ما إن تتمكنين من الرؤية حتى تقومي بإرجاع الجيب إلى الوراء أما أنا فسأدفعك من المقدمة.

ـ وحتام سيبقى المطر؟

ـ لن يطول تساقطه. علينا ونحن في انتظار انقطاعه توفير الراحة. أديري المحرك، لأشغّل جهاز التدفئة.

لم يطل الوقت قبل أن يصبح داخل السيارة دافئاً ومريحاً.. مد

بلايك يده إلى ما وراء مقعدها باحثاً عن حقيبة فتحها وأخرج منها وعاء قهوة حافظ للحرارة.

ـ ألا ترغبين في قليل من القهوة؟

صب بحذر بعض القهوة في الغطاء بدون أن يسكب منها شيئاً إلى الخارج.. كانت على وشك أن ترفض لكنها عدلت عن رأيها وقبلت.. لتبعد عنها شعورها بقربه..

قالت له «شكراً لك» ثم راحت ترتشف القهوة ببطء.

فيما بعد شعرت بأن المطر توقف فقالت: «بلايك».

ـ نعم.

ـ هل أبدأ بالمحاولة.. لقد توقف المطر.

ـ بعد دقيقة.

ـ ولكن الوقت يمضي والظلام يوشك أن يسدل ستارته.

قال بصوت جاف: «الظلام دائم عندي فلا تجزعي».

سحبت نفساً عميقاً ثم قالت: «لا أشعر بالخوف عندما أكون معك».

ـ إذن عليك أن تخافي.

وأمال رأسه إلى النافذة ليغط في نوم عميق.

لم تدر ما إذا كان عليها البكاء أم الضحك. لقد أظهرت لها تجربة اليوم وجهاً آخر لزوجها. إن كان حبها يعني مبيت الليل في حفرة موحلة في مرتفعات جبال كينيا فليكن هذا. لن يتمكن من إنكار وجودها إلى الأبد.. وسيأتي يوم يخفض فيه درعه، وهي تريد عندئذ أن تكون بالانتظار.. أدارت رأسها تنظر إليه ثم ما لبث أن ثقل جفناها شيئاً فشيئاً.

لم تستيقظ إلا على صوت بلايك الذي كان يهزها: «مارسي».

عندما رفعت رأسها دهشت ذلك أنها وجدت نفسها على كتفه..

سألها: «كم الساعة؟»

فركت عينيها وجلست: «الحادية عشرة إلا ربعاً».

تمتم بما هو غير مفهوم: «أعتذر لأنني غفوت هكذا».

ـ لا بأس.

صاح بصوت حاد ملؤه الكره لنفسه:

ـ بل هناك بأس.. كان عليّ أن أجثو أمامك شاكراً لك تمهيدك طريقي أمام المرأتين اليوم، فهذا يتطلب شجاعة.

مد يده ليأخذ سترته من الخلف:

ـ استعدي لإرجاع السيارة. حين أقول لك اضغطي دواسة السرعة. أصبح الوحل أصلب حالاً، وقد نتمكن من اجتراح المعجزة المطلوبة.

بعد عشرات المحاولات تمكن بلايك من تحريك الجيب إلى طرف الطريق، وقفز إلى الداخل متحمساً:

ـ فلنذهب إلى البيت.

البيت؟ سواء أكانت هذه زلة لسان أم لا أطاعت مارسي أوامره بسعادة عارمة.

* * *

٥ ـ على حصان الشوق

مر الأسبوع الأول بسرعة فاستقرت فيه مارسي وأنست إلى رتابة معينة، أما بلايك فلم يذهب بعد اتفاق ضمني إلى مكاتب نيروبي.. كان يتناول الفطور مع مارسي، ويصغيان إلى الأخبار عبر الراديو.. ثم يقضي سائر يومه مع مدير المزرعة ولا يعود إلا وقت الغداء. كانت مارسي تشغل نفسها أيضاً بالغسيل وبتنظيف المنزل وبتحضير الطعام وكانت تعتز بأمسياتها مع بلايك.

في المساء يأتي بلايك فيستحم ثم يغيّر ثيابه وبعد ذلك يجلس معها على الشرفة قبل أن يتناولا العشاء. وفي بعض الأحيان كانا يمضيان بقية الأمسية بهدوء وهما يصغيان إلى الموسيقى الكلاسيكية وفي بعض الليالي كان يدور بينهما حديث فكري مثير غير شخصي، فكانا يتحدثان عن كل شيء إلا عن نفسيهما ومشاعرهما، ومستقبلهما.. لكنها تدرك أنها بداية جيدة فمن يراهما يظن للوهلة الأولىٰ أنهما ينعمان بزواج هانيء ولكن ما من أحد يستطيع أن يعرف أن علاقتهما تفتقر إلى الحرارة والحب.

منذ تلك الليلة في الغابة، بذل بلايك جهده ليبقى جسدياً وعاطفياً على مسافة منها. وعرفت مارسي أنه متى بدأ يرتاد المكتب ستتغير معه حالهما المستقرة، وعندئذ لن تجد بلايك إلا مشغولاً.

استيقظت مارسي صباح الأحد وهي تدرك أنه يومه الأخير في

المنزل فسرعان ما سيعود إلى المكتب مرة أخرى. . كانت قد طلبت منه موافاتها إلى الإسطبل للقيام بنزهة على ظهور الخيل، ولكنه لم يجبها إلى طلبها وهذا ما خيّب آمالها بقضاء يومهما معاً.

ارتدت جينزاً وقميصاً قطنياً، لأنها قررت الخروج لامتطاء الخيل وحدها. بعدما تناولت فطوراً خفيفاً انطلقت إلى الإسطبل. لم تكن تعرف ما إذا كان بلايك مستيقظاً أو نائماً وحتى تعرف كان عليها المرور بالمكتبة. لقد مضى وقت طويل منذ تخليها عن هذه العادة. . فهو سيقطع رأسها إن شك في أنها تتأكد من سلامته.

ازدادت الأيام دفئاً وجمالاً إذ صفا الجو وأشرق. وجدت «دياولو» في آخر قمرة من الإسطبل. . وكان هناك جوادان للحراثة يأكلان التبن الطازج. تنسمت بسرور رائحة الجياد والجلد والتبن المألوفة لها، وأحست بوخزة حادة من الشوق إلى جوادها «كينغ» لكنها تاقت أيضاً إلى اعتلاء صهوة جواد بلايك.

سهل الجواد عندما اقتربت منه ثم راح يشمّها وتحدثت إليه بلطف.

ـ حسنا دياولو. . مضى زمن طويل أيها الجميل. . أتريد الخروج في نزهة؟ لا يظنني بلايك قادرة على كبح جماحك. . ولكنني قادرة، أليس كذلك؟

انتزعت لجام معلق على الجدار ثم أدخلت الرسن إلى فمه. . ما إن انتهت من هذا حتى قادته إلى الخارج فبدا لها أكثر وداعة.

ـ ألم أقل إنَّ عليك ألا تعتلي صهوة دياولو بمفردك، مارسي!

التفتت إليه مذعورة فرأته واقفاً قرب المدخل ويده على إطار الباب. . استوعبت عيناها ما يرتديه بأناقة فقالت لنفسها إنه رجل وسيم.

ـ أملت أن تكون هنا. . لقد جاء دياولو إليّ رأساً. . عرف صوتي

فوراً. . أنت تعرف أنه يموت شوقاً إلى العدو في البراري. . ألن تشاركني بنزهة قصيرة؟

ـ يبدو أن لا خيار لدي.

اشتم دياولو رائحة سيده فتقدم نحوه يتحسس صدره. . راح بلايك يتكلم مع دياولو بلهجة هادئة، ثم امتطاه برشاقة فريدة وبعد ذلك مد لها يده اليسرى:

ـ اصعدي، مارسي.

توقف الزمن لحظة وهي تعود بالذاكرة إلى الماضي. . سرت رعشة في جسدها وهي تمسك يده الممدودة لتعتلي صهوة الجواد حيث ستجلس أمام بلايك. .

وثب دياولو في مكانه فرحاً وكله شوق إلى العدو الصباحي. . التفت ذراعا بلايك القويتان حول خصرها وتركت نفسها تستند إلى الخلف على صدره حيث تحس بخفقات قلبه التي تناغمت مع خفقات قلبها ومع مشاعر مختلفة كالإثارة، والفرح والحنان والحب لهذا الرجل الرائع. . أغمضت عينيها تحاول تصوّر ما يشعر به المرء وهو أعمى ثم سألته: «إلى أين نذهب أولاً. .؟»

ـ اتجهي نحو الشمس.

وربت على عنق دياولو. . وكأن الجواد أحس أنه يحمل حملاً ثميناً، فأخذ يسير فوق الممرات بخطى وئيدة. . كانت المزرعة مستكينة في حضن وادٍ قريب من أشجار البرتقال. . مرت هي وبلايك أمام بساتين جديدة من الدراق والخوخ والإجاص متثاقلة الأغصان بالأزهار التي تعطي أريجاً يدير الرؤوس.

بدا أن دياولو قد شعر بالحرية بعدما خرجا من البساتين فازدادت بسرعته. . كان الجواد الأصيل يستجيب إلى أخف لمسة من لمسات بلايك. أما مارسي فأمسكت بالزمام فقط وهي تريح رأسها على صدر

زوجها. لقد ركبا هكذا مرات عديدة من قبل ومع ذلك لم تشعر قط بمثل هذا الإحساس الرائع.. ولكن ما هي منطقة «وايت اوكس» في انكلترا، حتى تقارن بهذه البراري الشاسعة..

شدَّ بلايك بعد وقت طويل زمام ديابلو الذي استجاب لسيده فخفف سرعته. لم يكن أي منهما قد شعر بالحاجة إلى الكلام وكانت تعرف أنه استمتع بالنزهة من الطريقة التي استرخى فيها جسده وراءها. أنستها النزهة المنعشة أن زوجها أعمى، وتساءلت عما إذا كان يعاني من الاضطراب.

سألته وهي تدير رأسها إلى جانب واحد:

ـ ما رأيك لو انطلقنا نتابع الريح؟

مررت شفتيها عن غير عمد على فكه فأحست بقشعريرة تجتاح جسده ولكنها لم تقصد أن تثيره.. فقد جرّبت غضبه بل جرّبت رفضه أكثر من مرة منذ غادر المستشفى، وكان كلما أجفل من لمستها تحس بجرح كبير. قالت ووجهها إلى الأمام، تقاوم ليبقى صوتها ثابتاً: «بلايك؟»

رد بصوت متكاسل سارع من جنون خفقات قلبها:

ـ إن كنت ستسألين عما إذا كان ركوبي معك الآن يختلف عن آخر مرة ركبنا فيها الجواد.. فالرد لا، لأنني في ذاك الوقت لم أكن أرى شيئاً أيضاً خاصة بوجود هذا الحرير الأسود الكثيف الذي يسد عليّ الرؤية.. ومسرور أنا لأنك لم تقصيه، ولأنك لم تغيري نوع عطرك.. فما أروع أن أعرف أن شيئاً ما لم يتغير حتى الآن.

في صوته رنة خشنة لم تسمعها منه منذ زمن طويل جعلتها تحسّ بأنها تكاد تتخدر من الشوق.

توقف ديابلو أمام مرجة راح يقضم عشبها.. رفع بلايك وجهه إلى السماء، ثم سحب نفساً عميقاً.. وقال:

ـ أستطيع القول إننا ابتعدنا كثيراً. يستحسن بنا أن نعود، فأنا أتوقع مخابرة هامة عند الظهر.

تمردت مارسي: «ما زال الوقت مبكراً، هل تعترض إن ترجلنا بضع دقائق؟ أريد أن أريح جسمي».

صمت لحظات ثم قال بصوت ملؤه الاهتمام والقلق:

ـ هل أنت مريضة؟

شجعتها هذه الإشارة التي تدل بوضوح على أنه مهتم بها. لم ترد أن ينتهي هذا الصباح لأنها تعرف أنه حالما يصل إلى المكتبة سيقفل على نفسه.

ـ لم أشعر قط بأنني أفضل حالاً.. ولكنني لم أركب الخيل منذ فترة.. وها هي عضلات ساقيّ تؤلمني.

أحست بأنفاسه تنحبس توتراً. ولكنه لم يقل شيئاً.. فجأة ترجل.. نظرت إلى زوجها من عن صهوة الجواد فرأته يرفع ذراعيه، ليساعدها على الترجل.

أنزلت قدميها بقوة لا لزوم لها وربما السبب بريق عينيه البنيتين أو حاجتها إلى أن تكون بين ذراعيه ولكنها في اندفاعها هذا وقعت على وجهها فوق بلايك وكان أن أدى ارتطامها به إلى وقوعهما فوق العشب حيث صدر عن حنجرة بلايك آهة قصيرة.

صاحت مذعورة وهي جاثية على ركبتيها:

ـ بلايك!

مالت فوقه، تمسك بوجهه تحتضنه بين يديها.. احتضنته الأرض الطرية ولكن رأسه ارتطم بصخرة ناتئة، فأغمى عليه.

ـ حبيبي؟ هل أنت بخير؟.. أرجوك.. أرجوك.. كن على ما يرام..

خنقتها العبرات والنحيب ثم راحت تمرر يديها بلطف ورقة على

شعره البني، فاكتشفت كدمة صغيرة قرب صدغه الأيمن.. ما زال مغمض العينين، ولكنه ما يزال يتنفس ولله الحمد.

تأوهت ثم صاحت: «إنها غلطتي.. بلايك».

وغمرت وجهه بقبلاتها محاولة بذلك إراحته بالطريقة الوحيدة التي تعرفها.. تفاقم رعبها عندما أدركت أن الإصابة الجديدة وقعت في الجانب نفسه الذي أصيب سابقاً:

ـ استيقظ بلايك.. أرجوك.. استيقظ..

لقد أوصلته رغباتها الأنانية إلى هذا، اجتاح الألم كيانها وحارت ماذا تفعل فهما بعيدان عن المنزل.

ـ مارسي؟

ارتفعت يداه إلى ذراعيها العاريتين وأخذ يدلكهما بحركات بطيئة متعمدة، فرفعت رأسها عن عنقه، المبلل بدموعها. بدت لها عيناه نصف المفتوحتين تحدقان إليها وهي تنظر إليه.. وسألها: «هل أصبت بأذى؟ أخبريني الحقيقة!»

لم تصدق أنه قلق على سلامتها، فابتلعت ريقها بصعوبة:

ـ أنا بخير بلايك ولكنك أنت المصاب، فعلى جانب رأسك كدمة وللأسف وقعت هذه الكدمة قرب الإصابة القديمة.. إنها غلطتي..

حاولت الترجل بسرعة كبيرة.

حجَّر لمعان الغضب تعابير وجهه:

ـ أخبريني الحقيقة مارسي.. لم تكوني بخير منذ لحظات.. لا تدعي أنك بخير!

ـ أقسم أنني بخير بلايك.. أردت أن أمنح ديابلو فرصة للراحة كما أردت أن أحرك عضلاتي المتشنجة.

بدا وكأنه مذعور من القلق:

ـ ليتني أستطيع رؤيتك لأتأكد من صحة قولك.

لم تكن مستعدة لما أقدم عليه بلهفة فقد راحت يداه تتحسسان أطرافها، وكأنما يريد أن يثبت لنفسه أنها سالمة.. ثم أصبحت فجأة لمساته مختلفة.

ـ ماذا ترتدين؟

كان هذا الإحساس الجديد مختلفاً جداً، فانسلت من بين شفتيها شهقة سرور ثم شعرت بأنه يحب تلمس بشرتها المخملية.

وقال هامساً:

ـ أقسم أنني لم أكن أريد أن يحدث هذا..

ولكنه جذبها إليه متأوهاً آهة كراهية للذات.

ـ مارسي..

وأطبق عليها يعانقها بلهفة وجوع.

تلاشت الأرض تحتهما بعد استسلام مارسي لشوقها المكبوت.. وأصيبت بهذيان الشوق فقد أشعل عناقه احتياجات قلبها.

كان يفعل بقلبها وروحها وعقلها ما يريد.. كانت مخدرة تخديراً عجزت معه عن سماع صهيل ديابلو القلق على بُعد ياردات منهما.

بدأ الجواد الأصيل يشخر ويصهل بشراسة.. وأخذت حوافره تضرب العشب الأخضر بحركات موتورة. بدت الأصوات التي كان يصدرها أشبه بأصوات إنسان. في تلك اللحظة دحرجها بلايك معه فوق العشب بقوة تفوق قوة البشر، وبسرعة سحبت منها أنفاسها.

وضع يده على فمها: «لا تتحركي.. لا تصدري صوتاً!»

تسمرا في مكانهما وكان رأس مارسي في صدره حيث تضمها ذراعاه.. ولأنها عاشت بين الخيول معظم حياتها، عرفت مارسي أن ديابلو غارق في معركة مع شيء قاتل معادٍ. تعلقت بقوة أكبر بالجسد المتوتر الذي يحميها من الخطر..

أخيراً، هدأت حركات ديابلو المحمومة.. ثم سمعت صهيله الناعم وهذا يدل على أن الخطر الذي كان قد ولّى.

- ارفعي رأسك ببطء مارسي وانظري من فوق كتفي.. أظن أن ديابلو صارع أفعى. لقد سمعت فحيحها قبل أن يضربها ديابلو.. أخبريني ماذا ترين!

فعلت كما قال لها: «أنت على حق، إنها أفعى».

واختنق صوتها.

- صفيها لي.

لعقت شفتيها الجافتين وشعرت بأسنانها تصطك.

- لست متأكدة.. طولها ثلاثة أقدام. رأسها كبير.. إنها ميتة.. كما أعتقد.

- ولونها؟

- لست متأكدة.. بني رمادي.. ربما؟

- هذا ما تصورته لازمي مكانك.

نهض بلايك بخفة وأطلق صفيراً.. صهل ديابلو وتقدم إلى سيده.. الذي راح يتحدث إليه بصوت منخفض يربت قوائمه، ويمسح العرق عن عنقه الضخمة.

- اصعدي على ظهره فيما أقوم أنا على تهدئته، لقد عانى من رعب كبير.

وقفت مارسي واعتلت صهوة ديابلو الذي ارتجف تحتها، ونظرت مارسي إلى الأفعى، الراقدة دون حياة فوق العشب المهشم. فارتجفت وكأن تياراً كهربائياً سرى في جسدها. وما هي إلا لمحة بصر حتى كان بلايك جالساً قربها يوجه الجواد إلى المزرعة هامساً في أذنها: «فلننطلق الآن».

- سأخبر كورتني عن الأفعى.. وسيرسل الرجال للتخلص منها.. وللتفتيش عن سواها.. لم أشاهد أفعى في هذه المنطقة منذ سنتين.. إذ نادراً ما تظهر. اعتبري ما حصل إنذاراً وتجنبي الخروج بمفردك.

عديني بذلك.. أفعى الكوبرا سامة وهي تلسع الإنسان في عينيه.. سُمّها يعمي في لحظات.

أحست مارسي أنها على وشك الإغماء: «لن أخرج بدونك».

- تفاهمنا إذن.

- أجل.

- الشكر لله لأنك لم تذعري.. أنت امرأة فريدة من نوعها مارسي.

كان صوته متهدجاً من التوتر:

- ولكنك لم تعطني الفرصة لأخاف.. لم أكن أدرك أين أنا.. أعني..

وفتشت عن الكلمات وهي تتذكر ما جرى. فلولا خوف ديابلو من الأفعى، لكانت ما تزال بين ذراعي بلايك.

- لا تفسري شيئاً. إنسي كل ما حدث هناك مارسي.. فلن يتكرر ما حدث مرة أخرى.

أودى بها إقراره المتهجم إلى جهنم التي شعرت بأنها ستبتلعها وهي حية.

راجعت ما جرى أثناء الاستحمام إن بلايك رغم عماه كان المسيطر منذ لحق بها إلى الإسطبل، ولكن ألا يعرف أن عماه لم يسلبه رجولته أو قدرته على حمايتها؟ بل العكس.. لقد أصبحت حاسة سمعه أدق وأرهف فمارسي لم تسمع أبداً فحيح الأفعى أما هو فسمعه وهذا دليل على أن بلايك قادر على أن يكون فعالاً.. في عالمه المظلم الجديد.

وجدت أن عليها المسارعة للعناية بكدمته. فتحت صندوق الإسعافات الأولية فتناولت منه حبوباً مضادة للألم وكيساً للثلج ملأته فوراً ثم توجهت به إلى المكتبة.

- بلايك؟ معي دواء لرأسك.. هل لي أن أدخل؟

- لا أريد دواء مارسي.

لم تنتظر إذنه بل دخلت إلى الغرفة تقول: «سأكون أنا الحكم».

لم تكد تصدق أنه الرجل الذي كان معها منذ نصف ساعة، الرجل الذي احتضنها بين ذراعيه فوق العشب.. يا الله كيف يقدر على الجلوس هادئاً بعدما جرى بينهما؟

ـ لا أذكر أنك طلبت مني الإذن لتبعدني عن الخطر. تفرض بعض الأوضاع على المرء تصرفه، وبما أنني أرى هذه الكدمة بوضوح أجد نفسي مضطرة إلى معالجتها.. استلقي بلايك، وضع كيس الثلج على رأسك.. ثم تناول هذه الأقراص التي وصفها لك الطبيب هارمان..

لم تنتظر حتى تسمع رده بل توجهت إلى الحمام لتحضر له كوب ماء وعندما عادت، وجدت أنه عمل بنصيحتها، فاستلقى على الأريكة ممسكاً بكيس الثلج الذي وضعه على صدغه.. كان وجهه قناعاً من خطوط متوترة، وأحست بألم لأنها المسؤولة عن ألمه.

لامست يده بالكوب: «هاك الماء.. خذ الأقراص.. يخف ألمك».

مد يده إلى الدواء وابتلعه بدون جدال، ثم وضع الكوب الفارغ على الطاولة بدون مساعدتها. لاحظت شحوباً خفيفاً على بشرته السمراء، فازداد قلقها.. كانت الغرفة باردة، ربما يجب أن تدثره بدثار قطني خفيف.

تمتم وهي تقف هناك حائرة:

ـ أنت تتعمدين البقاء مارسي.. فلتنه الأمر.. غطيني ثم ضعي لي الوسائد. هيا العبي دورك حتى النهاية.

ارتفعت يداها إلى خصرها.. كان بلايك عاجزاً وغاضباً كنمر دخلت في قائمته شوكة، وضعت عليه الغطاء ويداها ترتجفان.. من قال إن الكلمات لا تجرح لا يعرف شيئاً عما يتكلم! سحبت أنفاسها بقوة، وغادرت الغرفة وهي تكاد تصفق الباب وراءها ولكنها لم تشأ أن

تعطيه هذا الرضى.

توجهت إلى المطبخ لتحضر ما يقيم بأودهما وعندما جهزت الطعام عادت إلى غرفته فوجدته يغط في النوم وكيس الثلج على الأرض.

انحنت تلتقطه عابسة لتعيده إلى صدغه.. وفيما كانت تنحني شاهدت قطرات عرق على جبينه وعلى شفته العليا.. فتحسست جبينه.. إنه ساخن! وكان على لمستها أن توقظه ولكنه ظل يغط في النوم. سارعت مذعورة إلى الهاتف تتصل بالطبيب هارمان الذي راحت تقص عليه ما حدث بالتفصيل.

قال لها: «لا أظن أن الأمر خطير سيدة سايمور.. كما لا أظنه يعاني إلا من صدمة بسيطة. إن أية ضربة على الرأس قد ينتج عنها ورم أو حمى في بعض الأحيان أو تقيؤ. لقد أحسنت صنيعاً إنما حتى تطمئني تحسسي حرارته وتنفسه في الفترة القادمة. فإن نام كثيراً ووجدت أن نومه غير طبيعي، اتصلي بي، ليلاً أو نهاراً. أريد رؤيته في المستشفى صباحاً.. أفهمت هذا؟».

ـ شكراً لك دكتور.. سأسعى جهدي ليكون عندك.

لأنها تعلم أنها لن تستطيع التركيز على شيء وبلايك في حالته هذه أخذت سندويشاً إلى غرفته، واختارت قصة من بين كتبه. وستكون بهذا قادرة على القراءة وعلى مراقبة أي تغيير يطرأ عليه. استحوذ الكتاب على اهتمامها ولكنها لمَّا سمعت بلايك يتحرك وضعته من يدها.. استيقظ بعد ثلاث ساعات ثم جلس..

تقدمت مارسي إلى السرير تغمرها الراحة العارمة.

ـ هل أنت أفضل حالاً؟

تمتم وكأنه لم يستعد وعيه، ثم سأل بلؤم: «مارسي، ماذا تفعلين؟»

- ارتفعت حرارتك ولأنك لم تستيقظ، اتصلت بالطبيب و . . .

صاح بصوت راعد يقاطعها: «ماذا فعلت؟»

- لا تغضب بلايك . . كان عليّ أن أتأكد من سلامتك . . يريد الطبيب رؤيتك في الصباح.

لمعت عيناه غضباً: «كيف تجرؤين على استلام المبادرة بنفسك؟»

- تجرأت لأنك كنت بحاجة إلى مساعدة، ولأنني كنت سبب سقطتك تلك.

- سمحت لك باعتبار هذا المنزل منزلك ولكنني لم أسمح لك بالتدخل في حياتي مارسي . . هذه الغرفة خارج نطاق حدودك. أنا من سيقرر الموعد مع الطبيب وذلك في الوقت الذي أريده. هل هذا واضح؟

خرج غاضباً من المكتبة متوجهاً إلى الحمام . . فقالت:

- هل أتصل به وألغي الموعد، أم تتصل به أنت؟ إنه ينتظر مكالمة من أحدنا.

صاح: «دعي الأمور على حالها مارسي، ولا تتدخلي . . لقد فعلت ما فيه الكفاية حتى الآن».

تراجعت بغضب إلى المطبخ، وأعادت الغداء إلى البراد. ولأنها بحاجة إلى متنفس لغضبها لملمت الشراشف وبدأت بالغسيل . . لكن هذا لم يفدها بشيء . . وحين وقع نظرها على الجيب في الخارج لم تتردد في الخروج لتقوده بعيداً . . لقد جعلها بلايك تستشيط غضباً، فكرت في قضاء الليل خارجاً فلن يضيره أن يقلق قليلاً.

لم تكن لديها فكرة أين تذهب . . ولمّا قطعت مسافة الطريق أدركت أنها وقعت في الفخ مرة أخرى، وتركت بلايك ينال منها . . توقفت في القرية التالية لتتسوق ثم توقفت على الطريق لتشتري الأناناس الطازج، وبعد ذلك قفلت عائدة إلى المنزل وفي نيتها إعداد

طبق سويسري يحبه بلايك.

عندما وصلت إلى المنزل راحت تنقل الأغراض على دفعات وفيما كانت تنقل الأغراض في رحلتها الثالثة إلى المطبخ سمعت صوت زوجها الذي لم يكن فيه غضب. وهذا غريب ولكن على ما يبدو أن عزلته في العصر بعثت إليه الهدوء. كان يجب أن تكون راضية ولكن جزءاً منها أمل أن يكون قد اشتاق لها، اتجهت عيناها إلى صدغه فلم تجد أثراً للكدمة . . وكان قد ارتدى سروالاً قصيراً وقميصاً خمرياً زاد من سمرته.

- لم أستطع مقاومة الأسواق المحلية إذ يستحيل دخول دكان أو الخروج منه بدون شراء شيء.

- هذا ما يقوله معارفي من المتزوجين المساكين.

ضحكت مارسي فشاركها ضحكتها، وقالت: «أعدك أن لا أضعك في خانة المساكين . . امنحني عدة سنوات على الأقل».

أمسكت نبتة مزروعة في وعاء فخاري بيد وكيس شبكي مليء بالخضار باليد الأخرى.

- سأحضّر العشاء.

- لكنه جاهز.

حينما دخلت إلى المطبخ شمّت رائحة البطاطا والبصل المقلي اللذين وُضع فوقهما اللحم المشوي . . وهذا دليل على تصميمه وإرادته التي لا تلين . . عندما يتخلى عن غضبه تكون النتيجة خطوة حقيقية إلى الأمام.

وضعت الأغراض على رف المغسلة . . وقالت:

- سأذهب لأغتسل ثم أنضم إليك بعد دقائق.

- سأكون بانتظارك مع إبريق من العصير البارد.

- يبدو لي هذا رائعاً . . سأسرع.

ـ مارسي...؟

أجفلتها لهجته المتسرعة: «نعم».

ـ أنا أعي ما تبذلينه من جهد منذ قدومك إلى المزرعة، في الواقع لم أرد إرهاقك بالعمل المنزلي ولكن كما سبق أن وعدتك سأعوضك عن هذا.

ـ لا تقلق بلايك..

كان العشاء صامتاً.. ولم يكسر بلايك الصمت سوى لعرض المزيد من اللحم عليها.. فردت:

ـ لا أستطيع تناول لقمة أخرى.. لقد سكبت مرتين من كل شيء.. ستكون يوماً زوجاً ممتازاً بلايك.

ـ إن كنت تحاولين القول إني رجل أعمى ذو فائدة فلا تحاولي.. كورتني هو من قام بمعظم التحضيرات.

وضعت فنجان قهوتها بحذر:

ـ كنت أطريك على هذا العشاء الفاخر اللذيذ ولكنك لا تعرف الاطراء، ولو تقدم منك ليصافحك.

رد ساخراً: «ربما أنت على حق».

نهضت عن المائدة:

ـ سأوصلك إلى عملك غداً.. أما الآن فعلي تحضير غرفة لكارل. هل تفضل نوعاً معيناً من الأثاث للغرفة الشمالية؟

مسح فمه بالمنديل: «سأكلم كورتني ليقوم بطلي الغرفة أما الأثاث فليكن من اختصاصك. لدي حساب في محلات «كولدير» التي ستجدين فيها ما يعجبك».

ـ عندما أنتهي هل نلتقي لتناول الغداء؟

هز رأسه:

ـ لدي جدول مليء بالأعمال غداً. عودي إلى المزرعة، وسأطلب

من أحد الرجال في المكتب أن يوصلني، فقد أتأخر. واعلمي أنني فتحت باسمك حساباً في مصرف «لويد» فاسحبي منه ما تحتاجين من مال.

رفعت حاجباً رقيقاً، تسأل: «ألا تخاف أن أفرّ بالمال كله؟»

أملت استرداد لحظة المرح النادرة التي كانت سائدة منذ قليل، لكن الغضب دخل إلى عينيه: «ما أخافه فعلاً هو العكس».

اشتدت يداها في قبضتين: «ما بالك بلايك؟ أتجد أنك عاجز عن التعامل مع هذا الزواج المهزلة؟ ربما أنت بحاجة إلى الاتصال بكارل، لعقد اجتماع قمة آخر.. قل له إنك تعبت من لعب دور العريس المفتون.. ربما..»

ـ كفى مارسي.. ما كان عليَّ أن أتفوه بكلمة.. أكره فكرة توريطك في هذا الأمر الكريه.. خاصة أننا لا نعرف ما ينتظرنا.

سحبت نفساً عميقاً: «وهل يعرف أحد؟»

ـ نحن نتكلم عن رجل أو عن جماعة قد يرتكبون جريمة قتل ليحصلوا على ما يريدون..

نهضت عن المائدة وشرعت تنظفها:

ـ سألتني المساعدة فوافقت. إن شركتك برمتها تنظر إليك على أنك قائد. وبعد لقاء المرأتين عرفت طبيعة الخطر المحدق.

مدّ بلايك قامته منتصباً: «حسناً لا تفكري في الذهاب إلى المكتب.. لا أريد أن تظهري أبداً أمام الموظفين. قومي بما لديك في نايروبي، ثم عودي رأساً إلى هنا.. يعرف كورتني الوضع وقد أعطيته تعليمات ليراقبك عندما أكون في المدينة.. أما إذا أردت الاتصال بي فاستخدمي رقم هاتفي الخاص المدون في المكتبة».

أصغت مارسي إليه بقلبها وعقلها معاً. لقد أصبح وجودها عقدة، ولا تريد أن تضيف إلى قلقه ما تستطيع تجنبه.

قطّب بلايك ومرر يده في شعره وقال بصوت ملح:

ـ مارسي.. أفضل أن تبقي بعيدة عن نايروبي قدر المستطاع وقد اضطر إلى أن تقلبني إلى المكتب أحياناً ولكنني أريد أن تعودي فوراً إلى المزرعة.. فأنت آمن فيها من أي مكان آخر.. وقد أضطر إلى غياب ليلة، وسيترك كورتني كلبه «تشيلو» الدانمركي الضخم للحراسة.. لقد حرسا هذا المكان أثناء وجودي في المستشفى.

طمأنته مارسي ووعدته بأن تكون حذرة وكتومة.. واتفقا أن تقله في الأسبوع المقبل إلى نايروبي. بعدما اتفقا ذهب بلايك ليستلقي مرة أخرى، وبدأت مارسي بغسل الصحون.

أدركت وهي تمسح رف المغسلة مدى حاجتها اليائسة إلى من تحادثه ولكن هل يمكنها الإفضاء بهمومها لأي كان. ربما تتوقف في المستشفى بعد إيصال بلايك إلى المكتب.. لقد ذكر الطبيب هارمان ممرضة تدعى السيدة كورلي وقال إنها معتادة على العمل مع فاقدي البصر من المرضى.. ربما تستطيع هذه المرأة أن تقول لها ما يساعدها على مساعدة بلايك، والوصول إليه.

* * *

٦ ـ الجميلة والوحش

قالت السيدة كورلي لمارسي تنصحها:

ـ من السهل عليه ارتداء ملابسه وانتعال حذائه، لكنك مضطرة إلى اختيار الطريقة المناسبة لتوجيهه. لا شك أنه سيتجاهلك أو يصبح غاضباً ولكن عليك أن تمهليه بعض الوقت.

سحبت مارسي نفساً عميقاً:

ـ وماذا عن العكاز؟ فما زال يصطدم بالأشياء سيدة كورلي.

ـ لا تأتي على ذكره لأنه سيستخدمه في الوقت المناسب.. ربما بعدما يكسر ساقاً..

وضحكت على نكتتها ولكن مارسي لم تستطع تصور نكتة أسوأ من هذه.. نظرت المرأة الإنكليزية المرحة إلى مارسي:

ـ وماذا عندك أيضاً سيدة سايمور؟

ـ لا أدري من أين أبدأ.

بدا القلق على وجه المرأة العجوز:

ـ إذن عودي إلى زيارتي ثانية تجدي النصيحة التي تريدين.

ـ شكراً لك سيدة كورلي. سأزورك طبعاً، ففي الأيام القادمة سأوصل بنفسي بلايك إلى العمل كل صباح، ولن يعرف إن زرتك أو لم أزرك.

ـ سأتوقع قدومك.. أما نصيحتي الأخيرة لك فهي البقاء على حبه كحالك دائماً فالحب خير دواء.

وماذا تستطيع غير هذا؟

ولكنها تركت مركز الممرضات بمزاج رائق فقد خفف حديثها مع السيدة كورلي من وطأة الحمل الثقيل.

أمضت اليوم في المزرعة، تقلب الصور التي أحضرتها من بريطانيا.. كان بينها صور لوالدة بلايك، المتوفاة منذ سنوات عديدة.. وصوراً لأبيه في أيام شبابه يوم كان مهندساً في كينيا.

سحبت صوراً لوالديها، ولأفضل أصدقائها.. أمضت ساعات تفرز الصور لتضع بعضها في إطار والأخرى في الألبوم. أرادت أن تحيط نفسها وبلايك بالذكريات، وبلمسات شخصية ما زال يفتقر إليها منزلهما الجديد.

في اليوم التالي تجولت في المنزل تدون أفكاراً لتغيير الديكور.. وجدت أن الأبواب الزجاجية الأنيقة، والسقوف العالية في غرفة الجلوس بحاجة إلى ما هو تقليدي. إنها تملك في مخزن في بريطانيا، منضدة كتابة فاتنة فرنسية الصنع ومقاعد ذات ذراعين ورثتها من عائلة أمها.. سترسل في طلبها.. إضافة إلى عدة لوحات معلقة في غرفة نومها في منزل ذويها، ستكون هذه الأشياء محط الأنظار.. ثم ستختار من الفن الإفريقي ما سيمتزج مع جمال مشروعها.. لكنها بحاجة إلى رأي بلايك قبل البدء في ترتيب غرفة الطعام.

يوم الأربعاء، طلبت الأثاث من محلات «كولدير» ووصل بعد يومين.. وضعت مارسي السريرين في الغرف المطلية حديثاً، ثم أمضت ما تبقى من يومها تفتش عما تضيفه إليها لتجعل جوها دافئاً.

لم تكن مارسي تشاهد زوجها إلا وقت الفطور وأثناء قيادة السيارة إلى نايروبي صباحاً أما في المساء فكان يقل زوجها أحد الموظفين ولكنه كان يسارع حال وصوله إلى التواري في مكتبته طالباً منها عدم إزعاج نفسها بطعامه، لأنه تناول ما يكفيه.

بدا لها أكثر تصميماً على إبعاد نفسه عنها.. وهذا ما جعلها أكثر تصميماً على أن تصبح بالنسبة له ضرورة لا غنى له عنها. رفضه المستمر لما تقوم به من تودد كان يثبط عزيمتها، ولكن السيدة كورلي قالت إن ذلك سيتغير مع مضي الوقت.

تجشمت عناء تحضير عشاء خاص تلك الليلة.. فربما تغري رائحة الخبز الطازج واللحم المطهو زوجها فيطيل البقاء وهو يتناول الوجبة وبذلك تستطيع محادثته والتواصل معه.

كان العشاء جاهزاً منذ نصف ساعة حينما شعرت بالقلق عليه لأنه تأخر في العودة. فالجو ينذر بعاصفة وشيكة وهي تكره أن يعود تحت المطر الغزير حتى ولو كان هناك من يقله.

أشعلت النار سعياً إلى ما يشغلها فكان أن غمر الدفء المطبخ. وعندما رن جرس الهاتف، وضعت السماعة على أذنها وقالت متوترة: «نعم».

ـ مارسي؟ أنت بخير؟

أنعشها سماع صوته: «أجل طبعاً وماذا عنك؟»

ـ لقد صحبني أحد رجالي إلى المنجم بعد ظهر اليوم.. ومن سوء الحظ أن المطر يوحل الأرض بحيث يستحيل على المرء المرور بالسيارة وأخشى أن نبقى عالقين هنا معظم الليل.

ابتلعت خيبتها: «فهمت».

ساد صمت عميق:

ـ لا أقصد تركك بمفردك الليلة.

وبدا لها قلقاً بالفعل: «بالطبع لا».

ـ إن كنت قلقة، اتصلي بكورتني.

ـ أنا بخير.. حقاً.. أرجوك اعتن بنفسك، وعد إلى البيت سريعاً.

ـ مارسي إن لم نستطع العودة قبل الغد، فلا تتوقعي عودتي قبل المساء. لأن طائرة كارل ستصل في السادسة مساء وسأقوم باصطحابه إلى المزرعة.

اشتدت قبضتها على السماعة وهي تشعر بالامتعاض ذلك أنها كانت متمسكة بالبقاء وحدهما فهي لا تريد أن يشاركها أحد بزوجها، ولكنها سرعان ما وبخت نفسها، لأن شعورها هذا يظهر مدى أنانيتها.. فبلايك بأمس الحاجة إلى كارل.

ـ مارسي؟

ردت بسرعة: «جهزت له غرفته وها أنا أوشك على إعداد ضلع خروف للعشاء».

ـ كارل لا يهتم كثيراً بالطعام، فلا تتعبي نفسك، يجب أن أنهي المكالمة.. تصبحين على خير مارسي.

ردت بصوت أجش: «تصبح على خير».

وأعادت السماعة إلى مكانها ببطء. بدا لها الغد على مسافة سنوات ضوئية.. إنها الآن تفتقده فعلى الرغم من تباعدهما الجسدي تراه جزءاً متجذراً فيها.. وهي تخاف من أمسية واحدة بعيداً عنه، فما بالك بحياة كاملة بدونه؟

وقت المغيب عندما توقفت سيارة لاندروفر وعليها اسم مناجم سايمور أمام المنزل هرعت مارسي إلى الخارج وعيناها الجائعتان المشتاقتان تحطان على زوجها بشغف. بلايك مرتب وأنيق دائماً، ولكن قميصه الكاكي اليوم يبدو أشعث وملطخاً وكأنه لم يعرف طعم النوم، فَتَحْتَ عينيه ظلال قاتمة، جعلتها حالته تتساءل عن العوائق التي اعترضته بالأمس.. في الواقع كانت تشتعل فضولاً لماذا ذهب إلى المنجم، فالعودة إلى مسرح الكارثة تجربة قاتمة..

مسحت راحتيها بجنبيها لتمنع نفسها من احتضانه بين ذراعيها.

ـ مارسيلا.. أراك تزدادين جمالاً في كل مرة.

تحول نظرها إلى كارل الجالس وراء مقود اللاندروفر. ترجل ليقبلها بحرارة على وجنتها المتوردة.

ـ بلايك ستيفان محظوظ.. أتعرفين هذا؟

ابتسمت له محاولة تجاهل الألم الذي اعتصر قلبها بسبب استدارة بلايك عن تعليق كارل ومباشرته بتحسس طريقه إلى مؤخرة السيارة.

قال كارل بصوت منخفض لم يسمعه سواها:

ـ كان يشتكي من صداع حين قابلني.

هزت رأسها، وعيناها على بلايك، وقالت هامسة:

ـ يبدو متعباً.. إنه محظوظ لأنك ستمثله يا كارل.. وأنا شاكرة لك مجيئك.

كان شعر المحامي الشهير رمادياً ومع أنه ليس طويلاً كبلايك إلا أن بنيته قوية وملامحه مهيبة مؤثرة. لم تكن عيناه الرماديتان الماكرتان تفوّتان أقل تفصيل. وكان قد احتفل مؤخراً بعيد ميلاده الخمسين، ومع ذلك يتحرك وكأنه أصغر من عمره بعشر سنوات.

راقبت مع كارل بلايك وهو ينزل حقائب ضيفه من مؤخرة اللاندروفر شاقاً طريقه إلى الباب الأمامي.. وأحست بضغط على معصمها..

ـ إنه رجل رائع.. امهليه بعض الوقت وسيصبح مثال الزوج.

رفع كارل ببضع كلمات ثقلاً عن قلبها، واكتسب محبتها. لقد فهم بأن زواجهما غير طبيعي، ويعرف كذلك الأسباب. فتعلقت بيده: «إنه بحاجة إليك، كارل».

هزَّ الكهل رأسه: «إنه يحتاجني فعلاً».

وضع يده على خصرها ثم رافقها إلى البيت وهو يقول:

ـ لتعاونك الأهمية العليا في هذه المرحلة من اللعبة فهل لي أن

أعتمد عليك؟

ـ لو كان الأمر بيدي لوهبت بلايك حياتي.

تعاقد حاجباه الرماديان: «فلنتضرع إلى الله ألا نحتاج إلى ذلك. هل أخبرك بالمخاطرة المحدقة به؟»

ـ أجل.

مط شفتيه: «عظيم».

رافقته إلى غرفة الجلوس، فقعد على كرسي من الخيزران كانت قد نقلته من الشرفة في اليوم السابق وهناك عرضت عليه القهوة، لأن بلايك اختفى فظنت أنه قصد الحمام ليستحم وليحلق لحيته. قدمت مارسي فنجان القهوة إلى كارل ثم جلست قبالته.

ـ عرفت أننا سنراك قريباً ولكنني لم أتصور أن يتم التلاقي في مثل هذه الظروف..

ملس كارل شاربه: «تعرفين ما يقال عن الحياة، تواجهك أمور تخالف مخططاتك وتعرقلها».

ارتفعت بسمة حزينة إلى ثغرها:

ـ هذا صحيح.. ومؤلم. عندما أتيت إلى نيروبي لأكون مع بلايك، لم أتصور أن يكون مجيئي سبباً في جلب المتاعب عليه.

ـ على العكس يا عزيزتي لأنني أرى أن مجيئك سيخدم مصالحنا.

أرجعت خصلة من شعرها عن وجهها: «أتعني حقاً ما تقول؟»

ـ الحب معجزة بحد ذاته.. يعرف بلايك في أعماقه بقوة حبك، وهذا ما سيغير عالمه.. وما سيجعله أقوى مما يظن نفسه.

اغرورقت عيناها بالدمع: «أشكرك على ما قلته يا كارل».

ـ هل أقاطع حديثاً خاصاً؟

استدارت مارسي من مقعدها دهشة لأنها لم تشعر بدخول بلايك إلى الغرفة.. لقد استحم وغير ملابسه وها هو يرتدي جينز وقميصاً

أسود.. ليبدو جذاباً ومع ذلك بعيداً عن متناولها. ما زال وجهه البرونزي يحمل ظلال التعب وهذا يشير إلى أنه مريض.

ـ لقد أدخلت أثاث الشرفة إلى هنا بلايك.. على بعد خطوات منك كرسي من الخيزران.. أتريد القهوة؟

ـ لا.. شكراً.

تبادلت النظرات مع كارل، ثم قالت:

ـ استريحا ريثما ألقي نظرة على الطعام الذي سنتناوله في المطبخ في الوقت الحاضر.

قال كارل ممازحاً: «بلايك يا بني.. كنت أقول لها إنني لو كنت أصغر بعشرين سنة لاختطفتها لنفسي».

لم يرد بلايك فيما نهضت مارسي بسرعة متجهة إلى المطبخ، ولم تستطع أن تتخلص من الإحساس أن هناك خطباً ما.. هل تفاقم صداعه؟ تساءلت بخوف عما إذا كان لوقوعهما عن الجواد يوم الأحد علاقة بحالته.

حالما جهز الطعام، نادت الرجلين اللذين سارعا إلى الجلوس حول المائدة. كان بلايك قد استوى جالساً إلى كرسيه بدون صعوبة أما كارل فلحق به وهو ينظر إلى المائدة بإعجاب:

ـ جميلة.. رائعة. قد لا تستطيع أن ترى ما يفوتك يا بنيّ.. لكنّك تعرف أن لديك أفضل امرأة في الكون.

رأت مارسي أن مزاح كارل أصاب هدفه.. فقد جلس زوجها مسترخياً لكن يده كانت تمسك بإبريق الماء البارد بقوة.. حتى خشيت أن ينكسر في يده.

تنهد كارل أثناء العشاء: «إنها أفضل فطيرة لحم تذوقتها في حياتي، يجب أن تعطي زوجتي الوصفة».

والتفت إلى بلايك: «أرى أن في منزلك منجم الذهب الوحيد

الذي يستحق أن تعيش من أجله».

قاطعته مارسي عندما رأت تجهم قسمات وجه زوجها:

- أنت تجترح المعجزات لمعنويات المرأة.. كيف تتحمل زوجتك الفراق عنك فترة طويلة؟

ضحك: «صدقي أو لا تصدقي هي تشعر بسعادة عامرة عندما تتخلص مني لأن الفراق يجعل جمع الشمل من جديد متعة».

- إذن يجب أن نحسدك.

واختنق صوتها، فنهضت عن المائدة لتحضر القهوة ولكنها لاحظت وجه بلايك المتعب..

التفتت إلى كارل: «أتفضل العودة إلى غرفة الجلوس لاحتساء القهوة كارل؟»

ابتسم لها ويداه معقودتان على بطنه:

- أفضل البقاء حيث أنا لأنني غير قادر على الحركة.

جلست مرة أخرى: «سأعتبر قولك مديحاً».

- ماذا تعرفين عن حادثة المنجم مارسيلا؟

نظرت مارسي إلى زوجها، ثم إلى كارل: «لا أعرف إلا أن رجلين قتلا فيه».

وضع كارل مرفقه على المائدة.

- بلايك.. آن لها أن تعرف كل الوقائع.

رد بلايك بعد تردد: «أنت على حق.. لقد أرسلت لجنة التحقيق خبراء للكشف عن بقايا الانهيار. ولكنهم لم يجدوا خشبة واحدة تثبت ادعائي بأن الدعائم الخشبية كانت موجودة لدعم سقف المنجم.. حين نستخدم طريقة التفريغ، يجب وضع دعامات في المكان».

- ألا تثبت الخرائط أنكم وضعتموها؟

- ليست المشكلة في الخرائط مارسي.. فمن واجب المهندس أن

يتأكد من تنفيذ الخرائط بحذافيرها بالعودة إلى رئيس العمال وقد راجع رتشي شادويك كل شيء مع رئيس العمال دوغلاس عدة مرات.. ودوغلاس يصرّ أن الدعامات موجودة ومع ذلك لم نجد خشبة واحدة في مسرح الحادثة.

- يتعمد أحدهم الكذب إذن أو..

- ربما قام أحدهم بإزالة الأخشاب قبل الانهيار.. إن تحقيقاتي تثبت رأيي بدون أدنى شك.

- إذن هي عملية قتل إجرامية.

تدخل كارل: «صحيح ومهما حدث أو سيحدث تقع المسؤولية على كاهل بلايك حتى يقع المجرم في قبضة العدالة».

صاحت بصوت متألم: «ولكن هذا ظلم».

مال كارل إلى الأمام ووضع يديه على الطاولة:

- أنت على حق.. وبعدما عرفت الحقائق الأساسية سأطلب مساعدتك.

- تعرف أنني أفعل ما بوسعي لتبرئة اسم بلايك.

- عظيم.. أريد أن تقيمي حفلة.. وأعني حفلة مميزة تتجاوزين فيها كل الحدود وعلى هذه الحفلة أن تكون حفل استقبال بمناسبة زواجكما.. يجب أن تبدوا أمام المدعوين جميعهم غارقين في الحب كما يجب ألا يشك أحدهم في أنكما في وضع حياة أو موت أو في أنكما تشكان في وجود مؤامرة. دعي الأمر يخرج عن طوره ولا تقلقي بشأن النفقات التي سيتحمل أعباءها بلايك.

ضحك وكأنه مستمتع بما قال.. ثم أكمل:

- وفيما تستقبلان ضيوفكما وتتبادلان أحلى الكلمات أدور أنا بين الجموع الذين لن يعرفون سوى أنني مدعو للحفلة. وستدهشان مما سأتمكن من التقاطه حينما يغفل الناس عن الحذر، فالحفلات الصاخبة

طريقة غريبة في فك عقدة الألسن.

نظرت مارسي إلى زوجها.. وتصورت ما يدور في رأسه:

- متى تقيم هذه الحفلة؟

- في أسرع وقت ممكن.. يجب أن تشمل لائحة المدعوين جميع العاملين في الشركة ومن أجل المزيد من الأمان سندعو أصدقاء من خارجها.

لم ترَ على وجه بلايك أي ارتياح وهو يقف:

- لا أحب تعريض مارسي بهذه الطريقة كارل.

أدفأ قلقه عليها قلبها فودت لو تلقي ذراعيها حول عنقه، وترتمي في أحضانه في هذه اللحظة.

أجاب كارل: «ولا أنا أحب تعريضها ولكنها فرصة رائعة إذ سينخدع من له يد في عملية التخريب بسهولة.. لن يتوقع أحد منهم أن يتصرف رجل مستقبله العملي على المحك كعريس شاب منفعل».

مرر بلايك يده في شعره:

- لا أدري..

طمأنته مارسي..

- لا بأس عليّ فماذا سيحدث لي وأنا في منزلك بلايك؟ ما دمنا معاً في كل دقيقة من الوقت فلن أتعرض للمشاكل.

رفع كارل نظره شكراً لدعمها له.

- مارسيلا على حق.. فليس احتفال كهذا الموقع المناسب لإثارة المشاكل خاصة بوجود شهود لا حصر لهم، أضف إلى هذا أن هذه الحفلة فخ يولد حالة ذهنية خرقاء.. فلا أظننا نتعامل مع مجرم بارع التفكير.. بل مع شخص يحمل الغيرة في نفسه أو يسعى للانتقام أو للحصول على السلطة. أريد أن أراقبه، أو أراقبهم، وهم غير حذرين مما يحيط بهم فستسبب حفلة كهذه بعد المأساة إحباطاً لا حدود له في

نفسية المتآمر وربما تجبره على فضح نفسه بطريقة ما.. وسأراقب ردات الفعل، وسأصغي إلى القصص المتضاربة.

هوت يدا بلايك إلى جنبيه:

- فليكن.. أظننا قادرين على إقامة حفلة يوم الثلاثاء أو الأربعاء. لقد قمت مراراً يا مارسي باستخدام عاملين من مؤسسة تشرف على تقديم الخدمات من طعام وشراب وهؤلاء العمال قادرون على إنجاح حفلة بهذا الحجم. سأبدأ بالاتصالات لنشر الخبر.

مرت الأيام القليلة التالية بسرعة وما إن انتشرت الدعوات حتى أغلق كارل وبلايك على نفسيهما أبواب المكتبة، يراجعان ملفات العمال وتاريخهم ويدققان في الوثائق وفي ملفات الموظفين السابقين، كان بلايك وكارل يعملان حتى وقت متأخر من الليل أما مارسي فكانت تشغل نفسها بالتحضر لحفلة الاستقبال.

وصل العاملون من مؤسسة الخدمات في سيارات «ڤان» يوم الثلاثاء أي قبل الحفلة بيوم وهم يحملون معهم طاولات ومقاعد وطعام وشراب للاحتفال. قامت مارسي بمراجعة قائمة الطعام مع رئيس الطهاة.. وقررت إقامة حفل شواء في العراء ومن بين ما وصل قالب حلوى كبير كان الهدف منه إضافة اللمسة الأخيرة على الحفل كله.

ما إن حلّت الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي، حتى تغيرت ملامح المنزل والأرض المحيطة به. ارتدت مارسي ملابسها بعناية فائقة ولم تنته من التبرج إلا قبل وصول أول المدعوين بلحظات، أرادت أن يشعر بلايك بالفخر بها. لقد اعترف لها منذ بداية تعارفهما أنه يفضل شعرها مسترسلاً وكان يدعوها بغجريته الساحرة لذا أرسلته هذه الليلة حراً على كتفيها، ثم ارتدت فستاناً اشترته للاحتفال العائلي الذي كانا قد خططا لإقامته في لندن.. كان فستاناً يصل طوله إلى حدود الركبة وهو من الحرير

الخالص لونه ليلكي شاحب. تحلت بالقرطين الأزرقين اللذين أهداها إياهما بلايك كهدية زواج لينسجما لوناً مع خاتم الزفاف.

أخيراً، وليس آخراً، ثبتت باقة من «الغارديني» على كتف الفستان. كانت الزهور هدية من كارل والبطاقة تقول: «حظاً سعيداً.. فلتكسب أفضل زوجة على الأرض».

خرجت تفتش عن كارل لتشكره، ولكنها تسمرت في مكانها لدى رؤية بلايك الخارج لتوه من الغرفة الأخرى.. تلك الغرفة التي تخيلتها غرفة أطفال. لقد انتقل إليها حالما انتهى العمال من إصلاحها.

ارتدى بذلة بنية جديدة وقميصاً أبيضاً ووضع ربطة عنق ملونة. بدا وسيماً في بذلته وساحراً في وقفته.

استحوذت على مارسي رغبة قوية في عناقه فخرجت منها آهة حارة.

ارتفع رأسه: «مارسي».

- كيف عرفت؟

- أميز عطرك، ورائحة الغارديني، نحن لا نزرع منها هنا في المزرعة، فهل أفترض أن أحدهم أرسلها لك؟

بدا لها غير راض عن هذا.. فقالت: «قدمها لي كارل».

- هذا حق محصور بالعريس على ما أعتقد ولكن، بما أن هذه العروس هي من ضمن واجباته، سارع لإنقاذ الموقف.

- إنني أضع هدية الزواج بلايك.. القرطين.. هما رائعان ولكن إن كانت باقة الغارديني تغضبك أنتزعها.

تطلع إليها ساخراً: «لم أقل إن الزهور أغضبتني.. بل العكس.. اقتربي مني مارسي».

سرى في كيانها خوف ما فهو يبدو خطيراً كما لم يكن يوماً.

تقدمت إليه مرتجفة: «ما الأمر؟»

ارتفعت يداه البرونزيتان إلى عنقها والتفتا عليه، وقفت بلا حراك، وهو يمرر أصابعه على عظام كتفيها.

- رائحتك مذهلة كحال العروس عادة. أتشعرين بأنك عروس مارسي؟

التوى فمه في خط قاسٍ.. وبدا كأنه ينوي معاقبتها، ومعاقبة نفسه، بطريقة ما.

- فلنر مدى حبك المجنون لحبيبك الفاقد البصر، لزوجك الذي لا يستطيع شق طريقه من كيس ورقي، لزوجك العاجز عن الدفاع عنك أمام مجنون غير معروف؟

- توقف عن هذا بلايك..!

زاد ضغط يديه على عنقها النحيل ثم أردف:

- إنها حقيقة مؤلمة، أليس كذلك مارسي؟ مع ذلك، فعلينا إقناع الجميع بأننا لا نستطيع الافتراق لحظة.. فاقنعيني بهذا.. سيدة سايمور.

وحجب رأسه عنها وراح يعانقها بشراسة. قضت قوته على أية مقاومة قد تقوم بها ولكنها لم تقاومه لأنها تريده بشوق عارم. هي ترحب بعناقه حتى وإن كان وليد المرارة، سحقتها ذراعاه وعندما رسخ في ذهنه أنها ترحب بوحشيته، أبعدها عنه، وأنفاسه متهدجة.

- يا لك من ممثلة بارعة!. هل نجد كارل لنقول له إننا مستعدان لإلقاء التحية على ضيوفنا؟

أمسك بيدها وشدها بقوة آلمتها، وقال ساخراً مع ضحكة قاسية: «الجميلة والوحش».

سار أمامها، يجرها خلفه وكأنها طفل مشاكس ولكن المعجزة أنه بدا عارفاً تماماً بوجهته وكانت مارسي تركض تقريباً لتلحق بخطواته الواسعة. وما إن همّا بالخروج إلى الفناء حتى حذرها:

www.liilas.com
doodel al 7aloo

ـ لا تفارقيني لحظة طوال الأمسية مارسي. وإن أثار أحدهم ريبتك فأعلميني.. إني أنتظر بفارغ الصبر انقضاء هذه الأمسية.

ما إن حلت الثامنة مساء حتى كانت مارسي قد قابلت أكثر من ثلاثمئة مدعو.. يؤلف موظفو شركة مناجم سايمور مدينة مصغرة.. وما أذهلها أن بلايك رئيسهم جميعهم وأنه أسس شركته الخاصة بماله الخاص وقادها إلى النجاح، كان جميع المدعوين ينظرون إليه نظرة تقدير فشعرت بالفخر وهذا ما جعل الابتسامة تعلو ثغرها طوال الأمسية.

تجمع الضيوف واقترح أحدهم شرب نخب العروسين السعيدين.. وهلل الجميع تحية لهما. كان الاستقبال الحار حقيقياً جداً ومؤثراً ولكنها أحست أن ضباباً خفيفاً يغشي عيني بلايك من وقت لآخر.. وبعد خمود الضجة الأولية، وضع بلايك يده على كتفها فأنست بوجودها عليها.

قال ممازحاً بصوت مرتفع:

ـ إذن لن يشعر الجميع بالفضول بعد الآن.. سأعلن الآن بشكل رسمي أننا تجاوزنا العاصفة وأن الأعمال ستستمر كالعادة.

كان على وشك أن يتابع، لكن التصفيق تعالى مع صيحات الاستحسان، فاضطر للانتظار.

ـ أنتم الآن تعلمون أنني لم أهدر وقتي سدىً في رحلتي الأخيرة إلى انكلترا! وعندما كنت هناك دخلت في شراكة جديدة.

تسللت يده بطريقة حميمة إلى خصر مارسي النحيل:

ـ أرجو أن تتعرفوا جميعاً إلى زوجتي، مارسي التي جعلتني أسعد رجل في العالم.

مرر أصابعه في شعرها الأسود، قبل أن تلثم شفتاه عنقها برقة. دفع عرض التملك هذا الأيدي إلى التصفيق بحرارة وأرسل التورد إلى

جسمها كله وهو تورد لم يفت عن أنظار الحاضرين. وصاح الجميع:

ـ خطاب.. خطاب!

ـ عندما عدت إلى انكلترا في إجازة منذ بضعة سنوات اكتشفت أن عائلة جديدة تسكن في الأملاك المجاورة لأملاك أبي الذي دعاهم إلى حفل كوكتيل.. كنت على استعداد لتحمل هذا فترة قصيرة قبل أن أرحل. ولكن ما إن دخلت مارسي إلى غرفة الاستقبال حتى خطفت أنفاسي التي لم أستطع التقاطها منذ تلك اللحظة.

تعلقت مارسي به مذهولة بما يقول، لأن ما أصابه أصابها أيضاً بالقوة ذاتها، فلم يعد لأحد سواه وجوداً منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناها عليه.

تعالت التعليقات المعتادة اللاذعة عن الأزواج الجدد واحدة تلو الأخرى.. وشد بلايك عليها مرة أخرى وعانقها ولكن تودده إليها بعدما جرى بينهما أمام غرفته صدمها.

كان بلايك قد حذّر الجميع من التحدث عن الأعمال ورغم ذلك سرعان ما حوصر بأسئلة عن السياسة، والمعطيات التقنية، ومشاكل خاصة لا يمكن لسواه الرد عليها.. لقد عاد الرئيس رئيساً.. وبدا الجميع مطمئناً ولم يؤثر عماه في سلطته وخبراته. وإن كان لدى بلايك شك ما، فقد تخلص منه إلى الأبد. وليس عليه إلا أن يخطو إلى أي مكان ليصبح بشكل آلي، القائد المسؤول..

فيما كانت تراقبه مارسي وهو يتحدث عن الأعمال حتى مع استمرار الحفلة، اقتنعت أكثر فأكثر بأن حفل الاستقبال بدأ يشفي بعض جراح زوجها.. كان القائد الذي استوى من جديد إلى دفة القيادة يناقش المشاريع الجديدة بطريقة لا يشعر معها بأن سيف الغدر معلق فوق رأسه. ستذكر وإن لم يجعلها زوجة حقيقية هذه الساعات بفرح شديد.

تضاءل عدد الجموع في الحادية عشرة ولكن مارسي لم ترَ أثراً لكارل. كان يجلس على الشرفة قرب مقصف الشراب، مستعداً للوثوب عند أول إشارة تمر به.

همست: «بلايك، يشير إليّ رئيس السقاة أن أحضر المزيد من الشراب.. إبق حيث أنت وسأعود فوراً».

همس في شعرها الحريري: «دقيقتان فقط».

أرسلت كلماته قشعريرة لذيذة في كيانها فكان أن ابتعدت على مضض عن ذراعيه اللتين كانتا حول كتفيها، واتجهت إلى الشرفة الخلفية، تاركة إياه مع أحد المهندسين الشبان وأخرجت الشراب من الصندوق وحثت الخطى إلى غرفة الطعام لتضعها في الثلج.

ناداها من وراءها صوت غير مألوف: «سيدة سايمور».

التفتت بسرعة فأردف: «ألا تذكرينني؟»

نظرت إلى الرجل الأحمر الشعر، الأسمر كزوجها..

ـ ألست ريتشي شادويك؟

ابتسم لها: «تذكرينني إذن، في المرة الأخيرة التي التقينا بها لم تستطيعي انتزاع عينيك عن زوجك أيضاً».

سألت مبتسمة: «هل ملامحي شفافة إلى هذا الحد؟»

ـ هذا ما أخشاه. أذكر أننا تعارفنا في المسبح ولكنك كنت تراقبن بلايك وهو يلعب البولو فعلمت أن تفكيرك بعيد عني.

ـ كان تفكيري على الأرجح كما تصف ولكنني استمتعت بالحديث مع زوجتك لوسي.. أين هي؟

ملأ الحزن عينيه:

ـ إنها في «بيرث» في أوستراليا مع عائلتها، فنحن منفصلان.

ـ لم أكن أعرف هذا.

نظر إليها وكأنه يزن كلماتها:

ـ ولماذا تعرفين؟ إن هذه الليلة هي ليلتك فهل تراقصينني أم تظنين أن زوجك سيعارض؟

لن يعارض بلايك القديم أما الجديد فلا تعرف ما في نفسه.. شعرت بأن ريتشي شادويك يتصرف معها بحذر شديد.. فلماذا؟ أليس هو وبلايك صديقين حميمين منذ زمن طويل؟

قال بفظاظة: «إنسي أنني سألتك».

ـ أرجو منك ألا تظن أنني فظة.. ولكنني وعدت بلايك بألا أطيل غيابي.. لماذا لا نرقص أثناء توجهنا إليه؟

أخفى دهشته جيداً وقادها إلى منتصف الغرفة حيث الحشد الراقص، وقال بلهجة كئيبة:

ـ أنت أجمل مما مضى.. يحتفظ بلايك بإحدى صورك في مكتبه.. إنها لمأساة أن يعجز عن رؤيتك.

لو بدر هذا التعليق عن شخص آخر لغضبت مارسي.

قالت بلطف: «ليس ما حدث نهاية العالم فأنا وبلايك نتشارك ما هو أعمق بكثير من الأمور الحسية».

ـ إن كنت لا تعترض شادويك.. سأمارس وزوجتي شيئاً حسياً حالاً. أليس كذلك حبيبتي؟

كادت مارسي تشهق بسبب الغضب المكبوت في صوت بلايك فتساءلت للمرة الثانية عن سبب التوتر القائم بين الرجلين.. وعما إذا كان لها علاقة بذلك؟

* * *

٧ ـ الخروج من الجنة

أخفض ريتشي رأسه يحييها بصمت أما بلايك فأبعد مارسي بسهولة عن ناظري الرجل.. تعلقت مارسي ببلايك وهما يرقصان بتناغم مع الموسيقى:

ـ أكان ريتشي يتقرب إليك؟

توقفت عن الرقص، ترفع نظرها إليه بدهشة: «لا.. أي شيء إلا هذا».

عبس: «يخرج عادة عن طوره أمام النساء.. فلو ظن أنه قادر على النجاة بفعلته لتودّد إليك بدون شك».

رفرفت عينيها: «أظنك تشتبه بينه وبين شخص آخر لأنني لم أره يتصرف بطريقة مخالفة للأدب».

لمس خصرها بأصابعه، ربما بدون وعي:

ـ هذا أمر غريب، إنه يقبل بأية امرأة حتى وإن كانت متزوجة كفال يونغ، عليك ألا تثقي به.

ـ لا أفهم، كان صديقاً حميماً لك، وقد زارك وزوجته لوسي في انكلترا. هل وقع بينكما خلاف؟

ـ اسألي لوسي، فهي التي هجرته.

ـ بلايك. ليست عادتك التحدث بهذه الطريقة. إنهما زوجان رائعان.

ـ أعرف أنها أحبتك ولذلك طلبت منك مرافقتها إلى السوق في لندن، وكانت غايتي إبعادك عن ريتشي وعن فتنته التي لا تُقاوم.

ـ ماذا؟

لم تستطع تصديق ما تسمع.. فأكمل:

ـ لقد أولاك اهتماماً غير عادي في تلك الليلة.

ـ أنت تبالغ.. لو أزعجني، لتذكرت.. أنا قادرة على معرفة العابث حين أراه!

اشتدت قسوة فمه: «أنا أتفهم ردة فعله أمام جمال كجمالك».

ـ بلايك.. عمَّ تتحدث؟

ـ ثقي بكلامي فقط.. أراد ريتشي اصطيادك تلك الليلة.. لقد كنت كحالك دوماً، امرأة مغرية.. ولكنك لم تكوني بمتناول يده وأعتقد أن عدم تجاوبك معه أصاب كبرياءه بضربة صاعقة.

لم تظن مارسي أن بلايك يحمل في نفسه هذه الغيرة..

ـ لماذا تركته موظفاً عندك ما دام هذا هو شعورك نحوه؟

تابع رقصه: «سؤال جيد.. لأنه كان أفضل أصدقائي مدة ولأنه مهندس لامع بحيث يستطيع أن يكون رئيساً لشركة خاصة به. فكرت في إحدى المرات بالتشارك معه لكن عبثه مع النساء شاع كثيراً وعندما تركته لوسي رغب في فرصة اخرى.. فاضطررت إلى وضعه تحت الاختبار عدة أشهر.. مع ذلك..»

ابتعدت مارسي عنه ما يكفي لتتطلع إليه: «مع ذلك، ماذا؟»

اسودّ وجهه وتفصد العرق من جبينه ومن شفته العليا.. فأضافت:

ـ بلايك؟ ما الأمر؟

مال بثقله عليها وهمس:

ـ لا أريد أن يلاحظ أحد شيئاً مارسي.. تابعي الرقص باتجاه الباب.. إنه الصداع.. هذا كل شيء.

سألت بلهفة: «هل يشبه ذاك الصداع الذي شعرت به عندما جئت مع كارل إلى البيت؟»

ساعدته إلى حد كبير وهي تتوجه معه نحو غرفة النوم.. لم يلاحظ أي من المدعوين دخولهما إلى غرفة النوم.

ـ استلقي.. سأستدعي الطبيب هارمان.

تمدد على السرير مغطياً عينيه بذراعه.

ـ بالله عليك لماذا أصاب بالصداع أحياناً؟

ـ لا بل أنت تصاب به منذ تلك السقطة. كان من المفترض بك زيارة الطبيب في الأسبوع الماضي.. لقد قلقت عليك منذ ذلك الوقت.

ـ فلنوضح شيئاً.. أنا من يقرر متى أحتاج إلى رؤية طبيب.. عودي إلى الحفلة، ولازمي كارل.. واشرحي له حالتي.. ولكن إن سألك شخص آخر فقولي إنني سأتغيب بضع دقائق، وإياك أن تذكري الصداع.

ـ سأتعاون إن تعاونت أنت معي.

دخلت إلى الحمام لتحضر له الدواء الذي وصفه الطبيب عند الضرورة:

ـ خذ..

انتظرت حتى ابتلعه.. وبدا لها مريضاً فعلاً:

ـ أرجوك لا تنهض ثانية بلايك.. لقد بدأ الناس بالرحيل.

رد بتوتر: «سنرى».

ـ أعدك أن أرجع بسرعة.

أوقفتها جماعة من الرجال في طريقها إلى الشرفة، ليشكروها على الحفلة وقد أراد بعضهم توديع بلايك ولكنها قالت:

ـ سيحضر بعد دقائق..

تقدم كارل:

ـ قولي له إنني سأراه قريباً.. أنا ذاهب إلى منزل غرانت.. لقد دعا مجموعة منا لإكمال السهرة عنده.

رد غرانت يونغ:

ـ هذا صحيح، لقد وعدت ڤال بألا أتأخر. إنها تحس بالتعب في الأيام الأخيرة.

هزت مارسي رأسها: «قم بزيارتنا قريباً غرانت، واجلب معك ڤال.. أنا آسفة لأنها متوعكة. ربما نتناول العشاء معاً في ليلة ما في الأسبوع المقبل».

ـ ستحب هذا.. قولي لبلايك إنني سأتكلم معه في الصباح.. الأمر مهم..

تمتم كلماته بحيث لم يسمعها سواها. كانت عيناه مسلطتين على ريتشي شادويك، الواقف على بعد ياردات منها. أولاً بلايك، والآن غرانت.. ترى لماذا ما يزال ريتشي في الشركة ما دام الحال سيئاً؟

ـ سأخبره بهذا.. تصبحون على خير.

تعالت عدة أيادٍ تودعها ثم توارت المجموعة. خلال الفترة التالية، اختلطت مارسي مع بقية الضيوف وعندما كان يسألها أحدهم عن بلايك كانت تخبره بأنه في مكان ما.. وبدا لها أن ريتشي قد رحل.

شعرت مارسي بعد مغادرة الضيوف بالإرهاق لأن الأمسية أرهقتها جسدياً وعاطفياً. بعد منتصف الليل كان موظفو مؤسسة الخدمات قد غادروا المنزل بعدما رتبوا كل شيء فشعرت بالراحة.

خلعت حذاءها العالي الكعبين، وسارت على رؤوس أصابعها إلى غرفة بلايك حيث وجدت النور مضاءً.. رأت أن زوجها قد خلع سترته وغط في النوم وذراعه فوق عينيه. أصغت بحذر، لكن تنفسه بدا لها طبيعياً..

استيقظت مارسي باكراً في الصباح التالي فأسرعت إلى غرفة بلايك التي وجدت سريرها مرتباً.. لا شك في أن من رتبه هو كورتني.. ما آلم مارسي أن بلايك يلجأ إلى مدير مزرعته لا إليها لمساعدته. ولكن كورتني كان يدخل ويخرج بهدوء، حتى كادت لا تحس بوجوده. شعرت بخيبة الأمل لأنها لم تتحدث إلى بلايك، وتوجهت حافية القدمين إلى المطبخ لشرب كوب عصير وفي المطبخ وجدت رسالة صغيرة.. لقد صحبه كورتني إلى نايروبي، وإن احتاجت إليه فلتتصل بالشقة، ثم شكرها في رسالته على الحفلة الرائعة، وأكد لها أنه سيرد لها معروفها في يوم ما. كانت المذكرة بخط يده الواضح ولكنها كانت مبعثرة على الورقة ككتابة الأطفال.

أعادت مارسي قراءتها، قبل أن ترميها في سلة المهملات.. ثم شرعت تنظف المنزل علها بذلك ترهق جسمها فتخفف من ألمها.

خلال النهار، اتصلت بعائلتها وبعائلة بلايك، متجنبة ذكر مشاكل الشركة..

عاد بلايك مع كارل في الثامنة مساء، أعلمتها نظرة واحدة إلى زوجها بأن هناك خطباً ما، فقد قال حالما تحسس طريقه إلى الردهة الداخلية:

ـ تناولا العشاء بدوني.

انخلع قلبها لأنه لم يجبها..

ـ تبدو متعباً كالأموات بلايك.. أعرف أن صداعك يزداد سوءاً.

توقف أمام باب غرفة الجلوس.

ـ لقد عاودني في الطريق إلى المنزل. سأتناول بعض الأقراص ولن يلبث أن يزول الألم وعندها انضم إليكما.

صدمها توتر صوته إذ كانت كل جملة يتفوه بها تتطلب جهداً إضافياً..

نظر كارل إلى مارسي نظرة مشبعة بالكلام.

ـ كنا في الشقة معظم النهار وقد تعرض لنوبتين صداع.

اهتز صوتها: «صداعه رهيب.. وأخشى أن ينهار يوماً».

ـ ماذا قال الطبيب حينما خرج بلايك من المستشفى؟

مررت يدها النحيلة في شعرها: «قال إنه من الطبيعي أن يتعرض لبعض الألم ولكنني لا أرى في هذه النوبات ما هو طبيعي. من الأفضل أن أخبرك بما حدث منذ بضعة أسابيع. لقد وقع فيما كنا نقوم بنزهة على ظهر الجواد، ورفض رؤية الطبيب.. ربما تستطيع التحدث إليه حتى يغير رأيه بشأن زيارة الطبيب، فهو لا يصغي إليّ».

ـ زوجك عنيد. سأرى ماذا بمقدوري أن أفعل.

وابتسم لها تعاطفاً، ثم وقف:

ـ ربما نتناول عشاء خفيفاً، ثم نخلد إلى النوم لأنني لم أذق ليلة أمس النوم قبل الثالثة صباحاً. غداً يوم راحة، وسأخبرك بكل ما اكتشفته حتى الآن.

أحست بالراحة لأن كارل يرغب في إنهاء الأمسية بسرعة، فهي غير قادرة على التركيز على أي شيء، خاصة وهي تعرف أن بلايك يعاني من الألم. ليس هذا فقط بل ثمة أمر آخر يزعجها.. أمر ضبابي طاف في أعماق تفكيرها، ولا تستطيع أن تضع إصبعها عليه.. لكنه موجود، أمر ما، لاحظته ليلة أمس.. عادت باندفاع إلى غرفة بلايك فلم تسمع إلا أنفاسه المنتظمة الرتيبة.

لا تدري لماذا أضاءت النور في الغرفة، لم تتوقف لتحلل السبب.. ولكنها عندما أضاءت تكررت ردة فعل ليلة الأمس فقد رفع ذراعه ليغطي وجهه وكأنه يحمي عينيه من النور!

اقشعر جسمها كله. وعندما أطفأت النور عادت ذراعه ثانية إلى جنبه. غطت فمها بيدها لتخنق شهقة ثم أسرعت إلى غرفة كارل،

وقرعت الباب فأجابها بسرعة ولكنها رفعت إصبعها إلى شفتها هامسة:

ـ تعال معي.. أريد منك رؤية شيء ما.. سأشرح فيما بعد.. ثق بي فقط ولا تصدر صوتاً.

لحق بها إلى الغرفة الأخرى فوجداه مستلقياً على ظهره، نظر كارل إليه ثم إلى مارسي، متسائلاً:

ـ راقب ما سيحدث حين أضيء المصباح..

وأضاءته.. في هذه المرة تأخر ثلاث ثوان قبل أن تتحرك ذراعه إلى عينيه.. الدليل بالنسبة لمارسي واضح. نظرت إلى كارل:

ـ يتكرر هذا كلما أضأت النور.. والآن.. لاحظ!

أطفأت النور وما هي إلا لحظات حتى هوت ذراع بلايك إلى جنبه.

بدا كارل مصدوماً. فمد يده إلى زر المصباح وأداره.. فتأوه بلايك، ثم انقلب على وجهه ودفن رأسه في الوسادة. عندها أمسك كارل بذراع مارسي.. وأسرع يطفيء النور، فخرجت تنهيدة خفيفة من بلايك..

قاد كارل مارسي إلى خارج الغرفة ثم إلى الردهة والمكتبة: «عليك الاتصال بطبيبه فوراً».

ـ سأفعل.

أخذت تفتش عن رقم المستشفى في دفتر العناوين الجلدي الصغير، وقال كارل بصوت متهدج:

ـ لولا مشاهدتي ردة فعله بأمّ عيني لما صدقتك.

وارتجفت يد مارسي وهي تطلب رقم هاتف منزل الطبيب الذي رد عليها عند الرنة الثالثة:

ـ هنا الطبيب هارمان.

ـ دكتور؟ أنا مارسي سايمور.. لقد حدث ما أريد أن تعرفه..

ثم شرعت تسرد عليه كل شيء بكلمات مرتجفة.. وكان كارل يجلس على حافة الطاولة يصغي إليها.

ـ أريد رؤيته في الصباح الباكر في العيادة.. وهذا أمر في غاية الأهمية ولكن لا أريد منك أن تبلغيه باكتشافك، قد يعني هذا شيئاً وقد لا يعنيه أبداً.. هل أزعجه الصداع؟

ـ أجل.. ويبدو أن الألم يزداد سوءاً. لا أستطيع المضي في التظاهر بأن الأمر غير خطير.

ـ أوافقك الرأي، افعلي ما شئت ولكن على زوجك أن يكون عندي صباح الغد.

ـ أعدك بأن أقنعه.

أعادت السماعة إلى مكانها ثم نظرت إلى كارل مبتسمة ولكن البسمة غابت عن وجهها حالما رأت بلايك واقفاً في الباب.

ـ لمن قطعت هذا الوعد مارسي؟

جفّ اللون من وجهها، ووقف كارل يمسك يدها، وساد صمت رهيب في الغرفة.

ـ للطبيب هارمان.

ـ حقاً؟

ـ أنت تعاني من الصداع منذ وقوعك. قلقت عليك لأنك لم ترغب في العشاء الليلة فاتصلت به.. أريد أن أعرف إن كان صداعك أمراً طبيعياً وقد قال إنه أمر طبيعي ولكنه يريد أن يراك في عيادته صباحاً رافضاً منك أقل اعتراض.

سارع كارل لإنقاذ الموقف، بصوته الرهيب:

ـ لقد دفعتها للاتصال به بلايك.. لن أستطيع القيام بتحقيقات ملائمة إن كنت دائم القلق على حالتك الصحية. تعرف أنهم سيطلبون إفادتك في جلسة التحقيق ولأنني أظن أن أسئلتهم سترهقك أريد أن

أتأكد من صحتك الجسدية والعقلية.

ضغطت مارسي يدها شاكرة.. وقالت:

ـ ليس ارتجاج الدماغ بأمر يبعث على السخرية يا بلايك. لقد كان الطبيب غاضباً لأنك لم تحضر في الموعد الذي حدده لك سابقاً معي، ويلومني على رفضك لذا أرفض تحمل اللوم مرة ثانية.

تقدم بلايك إلى الغرفة ويداه في جيبيه:

ـ عانيت من بضع صداعات ولكن ليس في الأمر ما هو خطير.

كان تصرفه عدائياً.. فرد عليه كارل بهدوء:

ـ ربما ليس فيه ما هو خطير ولكنني أنظر إلى صحتك بجدية خاصة وأنت موشك على مواجهة التحقيق.

فرك عنقه: «أوضحت وجهة نظرك جيداً، حسناً سأتصل بالطبيب لموعد».

ربت كارل على كتف مارسي بمحبة:

ـ هذا ما يدعو إلى الراحة، أتمنى لكما ليلة سعيدة.. في نهاية هذا الأسبوع، أريد إخبار مرسيلا بكل المعلومات التي توصلت إليها في الحفلة.. أحس أننا نحن الثلاثة قادرون على الخروج بشيء ما لحل القضية في وقت قصير.

رد بلايك: «هذه أخبار جيدة يا كارل، ولكن هل يمكن تأجيل حل القضية حتى وقت بعيد قليلاً.. فأنا لا أخشى أن أقول إن عقلي يتعطل بعد ساعات من التفكير».

نظرت مارسي إليه بريبة، لأن ما قاله كذب واضح، فله عقل من فولاذ، لا ينفك عن العمل ليلاً ونهاراً.

بعد رحيل كارل بدا لها بلايك أكبر من الحياة بوقفته تلك، كان جسده متشنجاً، وكأنه يضبط أعصابه بصعوبة. لم تصدق أنه لا يريد الكلام عن جلسة التحقيقات مع كارل.. وواقع أنه يريد البقاء معها

وحدها ليس دليلاً طيباً.. فقد بدا أنه يحاول خداعها.. فلماذا؟

بدأ يقول بهدوء: «أنا أعمى.. ولكنني أعرف عندما يكون هناك ما غير صحيح.. ماذا يجري مارسي؟ أريد رداً حتى ولو أبقيتك هنا طوال الليل».

ـ لا أدري عما تتحدث، لقد أخبرتك أنا وكارل بكل شيء.. كنا قلقين عليك فاتصلنا بالطبيب..

هز رأسه، مبتسماً بتجهم:

ـ لا.. أنت قادرة على خداع الجميع إنما ليس أنا.. أتذكرين هذا؟ أعرف كل مزاج وكل وجه من أوجه شخصيتك. أنت تخبئين شيئاً عني.

ارتدت عنه، فاصطدمت بسلة المهملات:

ـ لا تكن سخيفاً..

قال بصوت منخفض:

ـ أنت خائفة.. وقد شعرت بكارل يغطي خوفك بكلماته.

صدمها إتهامه المجنون بأنها وكارل يخفيان عنه شيئاً، فصمتت.

تقدم إليها خطوة مهدداً: «ألست على حق؟ يحق لي أن أعرف لماذا اتصلت بالطبيب؟ سمعتك تقولين له إن الألم يزداد سوءاً.. ألم من؟.. ألمك؟»

ـ ألمي؟

ـ هل تأذيت يوم وقعنا؟ وهل تحاولين الآن الإدعاء؟ لا لن تنجحي. أين موقع إصابتك؟ أخبريني!

كان يطلق السؤال تلو السؤال، وعندما علمت أن انفعاله هو لخوفه عليها، تلاشى قلقها.. وتنفست الصعداء.

ـ أنا بخير بلايك.

ـ لا أصدقك.

- إذن عليّ أن أقنعك.

اجتازت المسافة الفاصلة بينهما ووضعت ذراعيها حول عنقه.. وقالت هامسة، تذوب عليه:

- تحسس بنفسك.

أحست به يرتجف ولكنه تماسك.

أردفت: «لم أحسّ قط بأنني أفضل حالاً».

راحت تمرر يديها على ذراعيه وصدره العريض.. وبدافع من حاجة لم تعد قادرة على كبحها، رفعت نفسها على أطراف أصابعها تعانقه، فقلقه الذي أظهره لها برهان أكيد على مدى اهتمامه بها.

تأوه بصوت منخفض، ثم تحركت يداه بلهفة وحب وامتلاك على كتفيها فأظهرت شوقه إليها ثم ما لبث أن سحقها بين ذراعيه في عناق عاصف.

همست له: «هل تأكدت من أنني بخير؟»

رد بصوت متحشرج:

- تعالي إليّ حبيبتي.. أريدك لي طوال الليل.

كانت يداه تمسّدان شعرها الأسود الطويل.. فخرجت أنفاسها في شهقاتٍ قصيرة.

- لقد احتجت إلى الشعور بك على مقربة مني منذ وقت طويل.. منذ سنوات..

وارتجف صوته بانفعال، فصاحت بصوت منخفض:

- بلايك.. أحبني.. أحبني..

وغطت وجهه بيديها تقبّل عينيه، ثم تدفن رأسها في شعره، تمتم:

- لا أظن أنك بحاجة إلى أن تطلبي ذلك.. بشرتك كالحرير.. ها أنا أشعر بخفقات قلبك وأحس بأنفاسك تتهدج من يدي.. ما أكثر عدد الليالي التي تخيلتك فيها هكذا بين ذراعي.. تطلبين حبي! أحتاج إليك

حتى لا يبقى فيك جزء غير مملوك لي.

أشعل عناقه موجات من الحب والشوق في كيان مارسي وشعرت بالنعيم بين ذراعيه فذابت حباً به وشوقاً إليه. ومضى الليل رائعاً ساحراً كانت فيه دموع الفرح خير دليل على سعادتها.

في وقت ما.. قبل الفجر بقليل، سمعته يتمتم باسمها.. وقد حرك الشوق في صوته قلبها مجدداً، فتصاعدت أنفاسها بإثارة وسعت إليه، فضمها إليه بحماسة شرسة كانت تتوق إليها ثم ما لبثت أن استكانت بين يديه لتعود إلى النوم الغني بأحلام عن الرجل الذي تحبه.

- بلايك؟

عندما لم تتلق رداً، مدت يدها إلى زوجها بحثاً عنه.. لكن يدها أحست ببرودة الفراش، فاستيقظت فجأة.. لقد ذهب.

نظرت إلى الساعة قرب السرير.. يكاد النهار ينتصف. بدا لها مستحيلاً أن تنام حتى هذا الوقت المتأخر.. لمحت عيناها كومة الثياب التي ما زالت في مكانها قرب السرير.. أغرقتها ذكريات حبهما المشبوب في الحب والشوق.. ليس في الكون كلمات قادرة على وصف الفرح الذي شعرت به لأنها أصبحت معه.. أخيراً..

تسللت من السرير وارتدت روب الحمام.. ثم لمّا قامت بجولة سريعة في المنزل تأكدت مخاوفها. لقد غادر بلايك وكارل المنزل.. إن ليلة أمس ليلة مميزة ولكنها بحاجة إلى كلمة تطمين من بلايك ولو انتظرت حتى يعود من عمله، لجننتها أفكارها ومشاعرها.

طوال الليل، فرض بلايك عليها وعليه جواً من السحر والفتنة.. شعرت مارسي بالرضى العميق لأنها جعلته سعيداً.. لكن مع قدوم الصباح، بدا لها كل شيء مختلفاً. لقد ترك فراشهما بدون كلمة.. إنها تعرف ما في قلبه ولكنها بحاجة إلى معرفة ما يدور في رأسه أيضاً.. وهذا ما لا يمكنهما مناقشته عبر الهاتف.. لو فاجأته في المكتب

لتمكنا من الخروج إلى العشاء ولقضيا الليل ربما في فندق.. فأمامهما مستقبل كامل يتكلمان عنه.

شعرت بالثقة بعد هذه الليلة التي مرت لذا ظنت أنه لن يعترض على ظهورها في المكتب. لقد أصرّ على أن تبقى بعيدة عن الأنظار حتى يوم الحفلة، والحفلة مضت وانتهت وأصبحت تجد أن لا داعي للبقاء بعيدة.. أرادت أن ترى مكاتب شركته وأن تحس بأنها جزء من حياته وها هي لا تطيق صبراً حتى يضمها ثانية بين ذراعيه.

عند العصر، كانت مارسي جاهزة فتوجهت بالجيب إلى نايروبي ومعها حقيبة تكفي حاجيات ليلة واحدة. وضبت بعض الثياب وأدوات الزينة على أمل أن يرضى بلايك بالذهاب إلى فندق ما. كانت قد استحمت وارتدت ملابسها بعناية وكان ما اختارته فستاناً فرنسي الصنع لونه أزرق خلاّب.. وفي سبيل التغيير عقدت شعرها فهي تريد أن تظهر جميلة أمام زوجها حتى وإن كان غير قادر على رؤيتها.

بعد ثلاثة أميال على المسير، ارتفعت حرارة السيارة، فعضت شفتها إحباطاً.. وخففت سرعتها ثم توقفت. كان الماء في جهاز التبريد يغلي بصوت مسموع. فعزت السبب إلى الحادثة التي وقعت عند سقوط المطر منذ أسابيع، عادت إلى الجيب وانطلقت به حتى وصلت إلى أول محطة وقود صادفتها.

اكتشف الميكانيكي أن جهاز تنظيم الحرارة الآلي بحاجة إلى تغيير ثم قال إنه لا يمكن تركيب القطعة الجديدة حتى اليوم التالي..

لم تجد، تحت ظل هذا الظرف الطارىء، بداً من استدعاء سيارة أجرة لتقلها إلى مكتب بلايك.. حملت معها الحقيبة الصغيرة، رافضة أن تثبط عزيمتها إعاقة بسيطة.

تحتل شركة مناجم سايمور مجمّعاً من الشقق التي تقبع فيها مكاتب فخمة. بعد رحلة قصيرة في المصعد، وجدت مارسي نفسها في

الطابق المخصص لجناح بلايك لأعضاء مجلس الإدارة. صدمها أول الأمر حجم المكان والزجاج والكروم، والنباتات الخضراء المتجمعة قرب لوحة إفريقية رائعة تحتل قسم الاستقبال. لمحت إحدى السكرتيرات مارسي وهي تخطو من المصعد فصحبتها إلى جناح بلايك الخاص ولكن مارسي وضعت يدها على ذراع السكرتيرة وسألت: «هل زوجي بمفرده؟»

ـ أجل سيدة سايمور.

ـ إذن أريد مفاجأته فهل من مانع؟

ـ بالطبع لا.

ابتسمت السكرتيرة وعادت إلى مكتبها، تنظر إلى مارسي باهتمام شديد.

حاولت السيطرة على خفقان قلبها ثم تسللت إلى مكتبه بخفة. كان بلايك وراء مكتب خشبي يجلس في كرسي دوار كبير.

وضعت أغراضها من يدها، وتسللت إليه، ثم انحنت تلثم قبلة على عنقه وقالت هامسة:

ـ افتقدتك هذا الصباح، بحيث لم أستطع البقاء بعيداً.

استدارت لتجلس قربه. ولكنها توقفت مسمّرة.. فالرجل الذي يتضور ألماً أمامها، لا يشبه زوجها الذي كان يغلي شوقاً بين ذراعيها ليلة أمس.

كان مستلقياً إلى الخلف في كرسيه الجلدي شاحب الوجه مغمض العينين. لقد شاهدت هذه النظرة على وجهه عدة مرات في الأسبوع الأخير. إنها نظرة الألم المبرح. أيقظته شهقتها الخفيفة فاستوى في مقعده وظللت قسمات وجهه قسوة.

ـ ألم أقل لك إن هذا المكتب هو خارج نطاق حدودك!

أفقدها غضبه توازنها ولكنها اقتربت منه قائلة:

- لا أرى ما يدفعني إلى الابتعاد بعدما تعرفت إلى جميع موظفيك. منذ متى وأنت على هذه الحال؟ أنت مريض لا يمكنك الاستمرار هكذا!

- أعود فأكرر أن صحتي هي شأني الخاص.. آه! تصيبني شفقتك بالغثيان مارسي.

- شفقة؟

كان لصوته الرسمي رنين متسلط.

- توقفي عن التمثيل لقد لاحظت تضحياتك.. فقد قمت ليلة أمس بتنازل بطولي لرجل أعمى.. ولكن لا تخشي مني فلن أطالبك بتكرار العرض، واعلمي أنني أرفض الزواج القائم على الشفقة.

لو صفعها صفعة قوية لما استطاع إيلامها إلى هذا الحد.

- أتدعو معاشرة زوجتك تنازلاً؟

أرعبتها ابتسامته الميتة:

- وماذا تسمينها إذن؟ إسداء خدمة لرجل أعمى؟ هل قلت لنفسك فلأدعه يظن لبعض الوقت أنه كامل الأداء..! يجب أن أعترف أنك ممثلة حقيقية مارسي.. حتى وبعد معرفتي بما أنت قادرة عليه، ما زال جزء كبير مني يستجيب لتلك المشاعر.

- توقف عن هذا بلايك!

- أعترف أنني فقدت عقلي بين ذراعيك لقد بعثك نفسي فترة قصيرة، ولكن من حسن الحظ أنه جاء مع الصباح التعقل والرشد.

تمسكت بحافة أحد المقاعد، وكأنه طوق نجاة، وقالت بصوت مرتجف:

- كيف تتمكن من قول هذا؟

رد دون رحمة:

- وكيف لا أتمكن؟ قلت لك إنني لا أريدك هنا أصلاً.. وما حدث

بالأمس هو نتيجة فترة طويلة من الخداع لصالح شركتي.. ولكنك وفيت بالغرض المطلوب منك، وحصل كارل على معلومات قيّمة.. لذلك يمكننا التوقف عن الادعاء.. لقد انتهى زواجنا الذي ما كان يجب أن يعقد أساساً..

- أليس لي قول في هذا أبداً؟

انحنى إلى الأمام في مقعده، يضع راحتي يديه على المنضدة:

- سأطلقك.. أما كارل فسيقوم بشرح كافة التفاصيل لك. لقد توصلت إلى تسوية ملائمة لتعويضك عن كرمك نحوي ليلة أمس.. أقر أنك تماديت أكثر مما يستدعيه الواجب، مارسي.. ومن أجل ما قدمته ستنالين مكافأة كبيرة.

- مكافأة؟

رنت الصيحة في الغرفة، وأكملت:

- كيف تجرؤ على التفوه بهذه الكلمات؟ كيف تجرؤ؟ لا بأس.. لن أوافق على الطلاق..!

شعرت بدوار أجبرها على الاتكاء إلى المقعد لتدعم نفسها. ولكن رده الهادىء سلبها ما تبقى من قوة أعصابها.

- أظنك ستوافقين. لقد حجزت لك تذكرة لمغادرة نايروبي صباح الغد، وغداً مساء ستكونين في «وايت أوكس». وضبي ما تحتاجين إليه في الوقت الحاضر وسأرسل ما تبقى من أغراضك بالباخرة إلى لندن.

- وماذا إن غادرت كينيا وأنا أحمل طفلك؟

انتفض عرق في صدغه فلم يفكر أحد منهما في ما قد ينتج عن ليلة البارحة.

- إن حملت بطفلي خصصت له وديعة مالية.. فأنا لا أتخلى أبداً عن مسؤولياتي.

قفز إلى قلبها خوف ما:

ـ وتنكر على نفسك الرغبة في ضم طفلك بين ذراعيك؟ والمتعة في أن تكون أباً؟

ـ سأكون أباً أعمى. على أية حال، نحن نتكلم عن إمكانيات لا عن وقائع. وربما حان الوقت لأقول لك إنني عرضت المزرعة للبيع. سبق أن وعدت غرانت بأن تكون له إن قررت بيعها. سيأتي هو وڤال يوم الأحد لمعاينة المنزل قبل إتمام الصفقة. لقد أعطاني العربون ولهذا السبب أريد أن تغادري في الصباح.

لم تستطع مارسي استيعاب ما قال:

ـ المزرعة هي فخرك وفرحك بلايك.. فكيف تتخلى عنها؟ بالله عليك لماذا تفعل كل هذا؟

ـ ألم تلاحظي أنني أعمى؟ أعتقد أنه تكفيني الشقة في مستقبل أيامي المملة. إن قرب الشقة من مكاتبي يهوّن عليَّ صعاب العمل، هذا إن بقيت الشركة أصلاً. وباختصار أقول إنني ما عدت بحاجة إليك في حياتي.

ـ تتكلم وكأنني موظفة تطردها من عملها.. ولكنك لن تستطيع التحرر مني بالطريقة ذاتها.

ـ بل أظنني قادراً.. فأنا لن أمنحك فلساً واحداً حتى تمنحيني الطلاق، كما أرى أن لا خيار أمامك بعدما قررت بيع المنزل إلا الرحيل. هذه هي تذكرة سفرك.

أخذ مغلفاً من درج مكتبه ورماه على المكتب.

ـ سيحضر كارل إلى المزرعة في السابعة صباحاً ليقلك إلى المطار غداً ولينـاقش معك تفاصيل الطلاق. أظن أن هذا هو كل شيء.

ـ قل لكارل إنه يضيع وقته.

وارتدت على عقبيها تتجه إلى الباب، ثم التفتت:

ـ لن أغادر كينيا بلايك.. حينما تعود إلى رشدك اتصل بي في

فندق «نيوستانلي».

وخرجت من المكتب باتزان وقور، فهل تكون بهذا قد خرجت من حياته أيضاً؟

* * *

٨ ـ من يكشف السر؟

ـ سيدة سايمور؟

التفتت مارسي وهي تنتظر أمام باب المصعد فرأت ريتشي شادويك واقفاً قربها:

ـ هل أنت بخير؟ أنت شاحبة كالأموات.

لم تبلغ ابتسامتها عينيها:

ـ لأنني جائعة. كان عليَّ تناول الغذاء قبل المجيء إلى المدينة.. ما ألطف أن تهتم لأمري!.. كيف حالك؟

انفتح باب المصعد فدخلا إليه.

تنهد قلقاً: أتريدين الحقيقة؟ إنه يوم متعب كريه لم ينتهِ بعد.

نظرت إلى ساعتها: «لكن الساعة تجاوزت الخامسة».

دفع قبعته إلى الوراء: «عليّ السفر إلى منجم «نايڤاتا» للقيام بعمل طارىء».

ـ وهل أنت مسافر حالاً؟

ارتفع حاجباه: «أجل.. لمَ تسألين؟»

ـ لأنني أريد أن أعرف إن كان بمقدورك اصطحابي إلى خارج المدينة، فقد اضطررت إلى ترك الجيب في محطة لخدمة السيارة بغية تغيير جهاز ضبط الحرارة.. بلايك مشغول، وأنا بحاجة إلى العودة إلى المنزل.

ـ أنت ضيفتي.. على أي حال يجب أن أحذرك من أنه ليس في شاحنة الشركة ما هو مرغوب.. عليك القبول برفاص مكسور والجلوس فيها بهذه الثياب التي لن تناسب أبداً خشونتها.

كان ملء نظرته الإعجاب: «سأخاطر».

انفتح باب المصعد في الطابق الأرضي.

ـ فليكن.. إن انتظرتني في البهو أسرعت بإحضار الشاحنة أمام الباب.

ـ شكراً لك سيد شادويك.

اتسع فمه بابتسامة ودودة: «أكره الرسميات.. ألا يمكنك مناداتي ريتشي؟»

ـ هذا سلاح ذو حدين، نادني مارسي إذن.

هز رأسه راضياً: «سأعود حالاً».

أثناء خروج ريتشي دخل غرانت يونغ الذي راحت نظراته تنتقل من ريتشي إلى مارسي..

ـ يا لها من مفاجأة سعيدة سيدة سايمور، هل جئت لرؤية بلايك..؟

لم تمل إلى محادثته: «أنا عائدة إلى المنزل».

لم تعجبها الطريقة التي تجاهل فيها ريتشي، وتساءلت ما طبيعة هذا الرجل الذي يتحفز بشوق للانتقال إلى منزل رجل آخر. ولو كان صديقاً لزوجها فعلاً، أما كان حاول على الأقل إقناعه بالاحتفاظ بالمزرعة، لا بالتخلي عنها.

ـ على فكرة، ألم يقل لك بلايك إنني وڤال آتيان يوم الأحد لنلقي نظرة على المزرعة؟

سحبت نفساً عميقاً: «بلى، ذكر لي الأمر».

ضحك بتوتر: «لا نصدّق حظنا السعيد لأننا..»

قاطعته: «أعذرني سيد يونغ ولكن السيارة بانتظاري وأنا آسفة لأننا لن نستطيع إتمام الحديث».

رد برضى ولكن بلهجة باردة: «لا مشكلة سنتكلم في وقت لاحق».

ـ وداعاً..

وهرعت إلى الشاحنة ولكنها أحست به يراقبها. أدار ريتشي المحرك وعندما لم ينطلق التفت إليها عابساً:

ـ لستُ الشخص المفضل عند زوجك مارسي.. ومنذ الآن أنذرك بأن غرانت سيخبره بأنك برفقتي. هذا لا يقلقني لكنني أريد أن تعرفي الوقائع حتى وإن كان ذلك سيغيّر رأيك فيّ.

ردت بهدوء: «أعرف أكثر مما تعتقد. لقد أخبرني أنكما كنتما أفضل صديقين يوماً»..

صمت، ثم قال: «ربما كان ما تقولينه صحيحاً فيما مضى.. ولكن منذ ذلك الوقت حدثت أمور كثيرة. لقد قامت أيادي محددة...»

صمت ثم أردف: «اسمعي مارسي.. سيجلب إيصالي لك الأقاويل».

أحست مارسي أن ريتشي تلقى جرحاً مؤلماً بطريقة ما.. جعلها تردده في المخاطرة بإيصالها تريد معرفة المزيد بحثاً عما حدث بينه وبين بلايك. وسألته:

ـ أنت قلق على سمعتك أم على سمعتي؟

ـ سمعتك طبعاً.. فلا يمكن لسمعتي أن تزداد سوءاً. وفوق هذا كله أنا المشتبه به الأول في كارثة المنجم لأنني أبعد ما أكون عن نظافة اليد.. لن يوافق زوجك على وجودك معي..

استراحت مارسي في جلستها على المقعد، متذكرة فجأة أنها

نسيت حقيبتها في مكتب بلايك..

ـ لن أدعي أنني لا أعرف عما تتكلم.. ولكنك ما زلت موظفاً في شركة بلايك وهذا بدون شك يعني شيئاً.. لقد قال لي إن الأمور لم تجر في مجراها بينكما.

ـ هذا يدهشني!

وفتش عن ثغرة في زمام السير، وأدخل الشاحنة بين الصفوف:

ـ هل ذكر لك أن لوسي تركتني؟

ـ أجل.. وأنا آسفة لأن زواجك لم ينجح.

اشتدت قبضته على المقود: «شكراً لك.. وأنا آسف لهذا كذلك، مع أنني لم أعترف بهذا أمام أحد من قبل».

وصدقته.

ـ أتجيبني عن شيء بصراحة تامة؟

ـ وهل ستصدقينني؟

ـ أجل.. ذكر بلايك أنك كنت تلاحقني لتغويني في تلك الأمسية في لندن يوم كنت مع لوسي.. أصحيح هذا؟

ضحك: «أجل.. بالفعل حاولت».

ذهلت لصراحته: «ولماذا لا أذكر هذا؟ فأنت لم تفعل ما أزعجني».

ـ لأنك لم تشعري بوجودي.. كنت مسلوبة اللب أمام بلايك.

ـ ريتشي.. لماذا فعلت هذا؟

ـ أنا وبلايك صديقان منذ أمد بعيد وطالما تساءلت عن سبب امتناعه عن الزواج أو الاستقرار أو عن العيش مع امرأة ما.. تلك الليلة في لندن، ضبطته يختلس النظر إليك قرب البركة ولأنني لم أشاهده قط ينظر إلى امرأة بتلك النظرة تولاني الحمق وقررت الاهتمام بك لأرى ردة فعله ولأختبر صحة نظريتي. يومذاك أخبرت لوسي بما أنوي فعله

فحثتني عليه لأن الفضول استحوذ عليها أيضاً ولكن من سوء الحظ انقلب السحر على الساحر.. لم أظن أن بلايك قد يتأثر بشيء أو بأحد بهذا العمق.

دهشت مارسي: «لم يكن لدي فكرة».

ـ وكان بلايك متمدناً معي بما يكفي بعد ذلك، لكنه لم يسامحني مطلقاً، وأنا لم أشرح له، وبعد ما فكرت في ما حدث وجدتني مجنوناً.. كان عملاً غير ناضج.

أحست مارسي بالانفعال لأنها عرفت أنه كان لدى بلايك منذ ثلاث سنوات مثل هذا الإحساس القوي نحوها.. من ناحية أخرى، استطاعت بسهولة أن تتخيل الجرح الذي أصاب ريتشي حين نبذه بلايك. وتذكرت ما جرى في مكتب بلايك، فأغمضت عينيها متألمة.. ماذا ستفعل؟

تابع، غير مدرك لمشاعرها المشتتة:

ـ طلبت لوسي منك الخروج معها للتبضع على أمل أن تعرف ردة فعلك على تودد إليك، أردنا أن نسترضيكما لأننا كنا نعتبر بلايك أعز أصدقائنا ولأننا كنا فرحين بسبب وجود حب سري في قلبه لكن ما بدأ مزاحاً انتهى كارثة. فبين ليلة وضحاها اندثرت الصداقة وتلاشت وكما حدث للمنجم انهار كل شيء على رأسي أنا.

نظرت مارسي إليه: «عرفت أن هناك تفسيراً ما.. عندما يأتي الوقت المناسب سأخبر بلايك بالحقيقة».

انسلت من بين شفتيه ضحكة خافتة ملؤها التحفظ:

ـ لن يصغي إليك، خاصة إذا دافعت عني.

ـ ريتشي.. أنا لا أعرف أن بلايك دعا إلى منزله شخص من كينيا سواك. ومن الواضح أنه كان يهتم بك وبلوسي كثيراً ولذا استضافكما.

تأوه: «أما أدركت أن تودد إليك كان صفعة على وجهه؟ لقد

أسأت استخدام ثقته».

ـ لكن كان عليه أن يعطيك الفرصة لشرح الأمر. ولولا عمى قلبي لتمكنت من معرفة الموقف قبل أن يتفاقم.. ريتشي، أرجوك، تذكر أنه لم يتخلَ عن صداقتك وإلا لما استبقاك في الشركة.

ـ إنه نادم على هذا الآن.. يستولي غرانت على أذنيه هذه الأيام.. لقد حذره بأنني.. أوه.. أنا أثرثر أكثر من اللازم.. أين هذه المحطة؟

أعطته التعليمات.. وعندما وصلا لم تبدِ دهشة لأن العامل لم ينه تصليح الجيب وقد تمضي ساعة أخرى قبل أن تتمكن من أخذه والعودة إلى المزرعة.

ـ لن أتركك بمفردك هنا. فلنذهب إلى فندق قريب ولنتناول عشاء مبكراً أثناء انتظار الجيب.

ـ لا أريد إزعاجك أكثر من هذا.

ـ يجب أن آكل.. لو عرف بلايك أنني تركتك وحدك لكان من حقه الشعور بالغضب، لو كانت لوسي مكانك لحذا حذوي.

قبلت لأنها تعرف أنه يقول الحقيقة. توجها إلى فندق الهيلتون القريب.. مرت الساعة التالية برضى وهما يستمتعان بطعم السلمون المشوي وسلطة الهليون الطازج والبطاطا.

أخذت مارسي تصغي باهتمام إلى ما كان يقصه ريتشي عن أيام الجامعة، حين التقى ببلايك.. كانت تزداد اقتناعاً كلما مضى في الحديث بأن بلايك حرم نفسه الكثير عندما سمح لصداقتهما بالانهيار بسبب شيء له علاقة بها. حاولت أن تتذكر تلك الليلة في مزرعة سايمور في انكلترا.. لو كان ريتشي خبيثاً أو تعمّد مغازلتها، لصدته.. ولكن هذا لم يحدث.

وجدت نفسها أثناء تناول الحلوى نصف مصغية لأن أفكارها عادت إلى بلايك وإلى عزمه على إنهاء زواجهما.. ثم قال ريتشي شيئاً

استرعى اهتمامها الكامل، فسألت:

ـ وهل فقدتما طفلاً؟

رمى منديله فجأة.. وأردف يسرد عليها التفاصيل:

ـ اسمعي مارسي.. أنا لا أقصد استدرار عطفك..

ـ لا.. لا.. لا شك في أن ما كان حدث عذاباً لك.

ـ ولكنه ليس عذاباً يفوق ما تمرين به أنت وبلايك الآن. إنه يخفي الأمر جيداً ولكن العمى هو الجحيم على الأرض بالنسبة له.

أحست بالدموع تكاد تطفر من عينيها فحاولت حبسها.

قال ريتشي وقد بدا عليه الأسى: «أنا آسف. ما كان عليَّ تذكيرك بالأمر».

هزت رأسها: «بل يسرني ما حدثتني عنه. لقد أخبرتني أموراً أقنعتني بأن لا دخل لك في مشاكل الشركة، ولكنك ألمحت إليّ أنك تنوي شيئاً».

ـ صحيح.. ولكنني غير مستعد إلى طرح قضيتي أمام بلايك حتى أتأكد من الوقائع. على أي حال، أشك أن يمهلني الوقت لهذا. ولكن لا شأن لك بهذا.. فلنذهب؟

أسندت مارسي رأسها إلى نافذة الشاحنة خلال الرحلة القصيرة إلى محطة الخدمات.. وأحست أنها ممزقة، فعدا مشاكل ريتشي هناك مشاكلها مع بلايك الذي يريد إخراجها من منزله ومن حياته غداً.

ـ ها قد وصلنا سالمين معافين.. ويبدو أن الجيب جاهز.

ـ شكراً لك على كل شيء ريتشي.. أظن أن التقاءنا صدفة في المكتب هبة من الله.

التوى فمه بابتسامة لطيفة مدهشة: «أشكرك لأنك أصغيت إليّ فهذه صفة نادرة».

ـ أنا مستعدة للإصغاء متى شئت.

ـ أظنك تعنين هذا.

قفزت من مقعدها في الشاحنة مبتسمة له:

ـ سأكلم بلايك.

هز رأسه، ملوحاً بيده، ثم انطلق. أخذت مارسي السيارة بعدما سدّدت الفاتورة وانطلقت نحو المزرعة قبل أن يهبط الظلام.

ما إن أدارت الجيب إلى الطريق الترابي، حتى تناهى إلى خياشيمها أريج أزهار البرتقال.. كيف له أن يفكر في التخلي عن المزرعة؟ وكيف ستتحمل الرحيل عنها؟ إنها بيتهما. تشعر الآن بعد ليلة الأمس الرائعة بأن فكرة الطلاق تمزق قلبها وجسدها.. ترى هل كان سيطلب الطلاق اليوم لو لم يحدث ما حدث البارحة؟

ـ أين كنت؟

فتح بلايك لها الباب الأمامي عن غير توقع. فارتدت مصدومة.. كان ينتظرها.. إذن لا بد أن غرانت أخبره بأنها خرجت مع ريتشي.. جعلها التعبير الغريب على وجهه مرتبكة.

ـ في محطة خدمات في نايروبي، أنتظر إصلاح الجيب.

حاولت تجاوزه لتدخل ولكنه أمسك يدها بسرعة، وقبل أن تعرف ما يحدث، ثبّتها على الباب المقفول، يمسك بذراعيها.

ـ وهل كنت بمفردك طوال الوقت؟

كان وجهه قريباً منها، فاستطاعت أن تشم عطره وأن تشاهد عرقاً نابضاً في زاوية فمه.. تشاركا ليلة أمس تجربة عاطفية عنيفة، ما تزال ترتجف لذكراها. أما اليوم فقد بلغا الطريق المسدود.

ـ لم يضع غرانت يونغ وقته إذن؟ لقد كان ريتشي على حق.

علمت أن ذكر اسمه سيدفع زوجها إلى الجنون ولكنها لم تعد تكترث.. فلن تسوء الأمور أكثر من هذا.

أصبح فمه خطاً أبيض مستقيماً من الغضب:

ـ تزداد الأدلة التي تدين ريتشي في كل دقيقة. أتعرفين أنه لا يملك دليلاً عن مكان وجوده ليلة حريق هذا المنزل؟ ألا تدركين أن من الخطر أن تكوني معه، نظراً للظروف الحاضرة؟ قلت لك ليلة الحفل إنني لا أثق به.. أما غرانت فأخبرني بأمر ذهابك مع ريتشي لأنه قلق عليك ولأسباب مهمة. وهذا كثير على زوجة مخلصة عاقلة.

التوى فمه سخرية.

ثم انفجرت عواطفه بشكل مفاجىء فضمها إليه وأحنى رأسه ليخنق أي رد كانت ستقوله، كان في عناقه يأس وكأنه يقاوم شيطاناً يعذب روحه.. أو كأنه مصمم على تعذيب نفسه وتعذيبها معه.. ولكن قربه الحميم منها نحّى أي شيء آخر من تفكيرها.. إن هذا العناق هو ما رغبت فيه بشدة منذ استيقظت صباحاً. لقد رغبت وأرادت واحتاجت إلى الاكتفاء الذي يستطيع وحده أن يمنحها إياه.. اندفعت إليه لتتكيف مع عناقه ولكنه أحس بتجاوبها، فدفعها بسرعة عنه وراح يسحب أنفاساً ثقيلة ليهدىء نفسه. أما مارسي فاستندت إلى الباب تحاول استرداد أنفاسها من خيبة الأمل الرهيبة بسبب ردة فعله غير المتوقعة.

وضع بلايك يديه على جنبيه: «أنت تحترمين سلامتك بشكل رائع؟»

ـ إن كنت تشير إلى ريتشي فعلي أن أشرح لك كيف حدث ما حدث. كان قرب المصعد حين تركت مكتبك ولأنه قال إنه ذاهب إلى المنجم سألته إن كان قادراً على أن يقلّني إلى محطة الخدمات.. وعندما قال إن ذلك لن يعجبك اضطررت إلى إقناعه.

صاح عابساً: «ألا تدركين أنك ترمين بنفسك بين يديه؟ لقد أقنعك بالذهاب معه مع أنه يعلم أن عمله هذا لن يعجبني، لا ضمير لهذا الرجل. اسمعي أنا الآن أكثر من أي وقت مضى أريدك خارج نايروبي

لماذا لم تقولي لي إنك بحاجة إلى من يقلك إلى مكان الجيب؟»

ـ عندما غادرت مكتبك لم أكن أفكر في الجيب وعندما رآني ريتشي ظنَّ أنني مريضة فعرض عليّ بلطف مساعدتي ولكنني لا أظن أن له دافعاً خفياً.

ـ أتدافعين عنه مارسي؟

ـ شرح لي ما حدث في منزلكم في انكلترا منذ ثلاث سنوات.. وأظن أن هناك ما عليك معرفته.

ـ أتقولين إنه لم يقم بأقصى جهد له ليغويك تلك الليلة؟ كنت هناك وشاهدت كل شيء.. لم أعرف أنني قد أكون مخطئاً في تقديري لشخص ما.

ـ أجل.. شاهدت كل شيء، ولكنك لا تعرف سبب ما فعل.

تلبّد وجهه: «عمَّ تتحدثين».

ـ فعل ما فعل مزاحاً بلايك وكانت لوسي شريكته. لقد تساءلا عما إذا كنا متحابين، وظن ريتشي أنه يعرفك أكثر من أي شخص آخر، أدهشه الظن بأن ما يراه حقيقي، فاتفقا على أن ينفذ تجربته.

أغمض عينيه ولكنها عرفت أنه بدأ يصغي إليها.

ـ بدأت المشكلة حينما عرف أن شكه صحيح. وبسبب فضوله خسر احترامك وصداقتك. ألا تدرك ذلك؟ لهذا صحبتني لوسي للتسوق في لندن. أرادت أن تشرح لي الأمر غير أنها عدلت عن ذلك عندما أدركت أنني لم أنتبه لشيء.

همهم ببعض الكلمات ثم قال: «لقد أثَّر فيك فعلاً».

ـ لا تعرف أي خطأ وقعت فيه. لولا سؤالي إياه عن تلك الليلة لما أتى على ذكر الحادثة.. لماذا لم تترك له مجالاً لشرح ما حدث؟ لقد جرحته وجرحت نفسك بعدم السماح له بالدفاع عن نفسه.. أرى أن ذنبه الوحيد هو القيام بمزحة بريئة انقلبت عليه بطريقة ما..

لم يتحرك بلايك من مكانه: «بمقدورك أن تكوني محامية من الطراز الأول. أهنئك. لمسة معلم.. لقد وجد لنفسه المحامي يا زوجتي الغالية».

أرجعت خصلة من شعرها عن جبينها:

ـ إنه بحاجة إلى من يصغي إليه.. ومن الواضح أن اللجوء إليك أمر غير مُجدٍ.

ـ قد تنير زوجة غرانت دربك بشأن ريتشي شادويك..

ارتفع ذقن مارسي: «أعلم أن ريتشي ما زال يحب زوجته.. الرجل يتألم بلايك. لقد أمضى وقت العشاء وهو يستعيد ذكريات زواجهما و...»

ـ العشاء؟

ـ أجل.. تناولنا العشاء فيما كنت أنتظر إصلاح الجيب.. رفض أن يتركني بمفردي وفي أثناء الحديث، أخبرني عن الطفل الذي خسراه و..

دعك عنقه متعجباً وقاطعها: «طفل؟ أي طفل؟»

ـ لقد أجهضت لوسي في الشهر السادس.. وهو يقول ان الإجهاض دمرهما فترة.

ملأ الصمت الردهة: «ومتى حدث ذلك؟»

طوت ذراعيها متذكرة حزن ريتشي:

ـ لا أعرف بالضبط.. أظنه قال منذ سنتين تقريباً. ولكن قد أكون مخطئة.. بصراحة أستغرب بقاءه معك في الشركة لديك.. وهو يقوم الآن ببعض التحقيقات المتعلقة بانهيار المنجم.

رفع رأسه نحوها:

ـ لقد سيطر عليك حقاً.. يريد شيئاً منك مارسي.. تذكري كلامي.. ولن أصاب بالدهشة لو مرّ إلى هنا في طريق عودته من المنجم ليرى إن كنت وصلت بخير أو ليتخذ سبباً آخر للنيل مني.

ـ ألا يمكن التحدث إليك بمنطق؟ الرجل يعترف بخطأه.. ألا يستحق محاكمة عادلة؟ فكر يا بلايك أنه أعز أصدقائك.

ـ كان.. هي أنسب كلمة.

أغمضت عينيها يائسة من عناده وكانت سترد ولكن طرقاً على الباب الأمامي منعها من قول شيء فضحك بلايك..

ـ ماذا قلت لك؟ أعز الأصدقاء لم يستطع البقاء في المنجم فعاد.. ولماذا لا يعود؟ يعرف أنك سترحبين به هنا..

دفعها بغضب شديد وفتح الباب بحدة:

ـ ماذا تريد شادويك..؟

قال مدير المزرعة المذهول، الواقف بالباب وقبعته بيده..

ـ أنا كورتني سيد سايمور. آسف على إزعاجك.. ولكن قائمة دياپلو الخلفية متورمة وحرارته مرتفعة.

عالج بلايك غلطته برباطة جأش رائعة ولكن مارسي لاحظت امتقاع لونه.

ـ آسف على ما بدر مني كورتني. أراك في الإسطبل بعد قليل.

هز الرجل رأسه، ثم أحناه محيياً مارسي..

التفت بلايك إليها يضيف:

ـ ما زالت الأمسية في مستهلها.. ونحن لم ننتهِ من هذا الحديث.

عندما خرج كالعاصفة من المنزل، قررت مارسي الرحيل إلى نايروبي فوراً، لأنها مقتنعة بأنه لن يكتفي ويرضى حتى يرافقها شخصياً إلى الطائرة، ويشد حزام مقعدها.

ذهبت إلى غرفتها لتوضب حقيبة تكفيها أسبوع كامل وذلك بانتظار أن تضع خطة. أدارت الجيب للمرة الثانية وقفلت راجعة إلى المدينة تفكر في الذهاب إلى الهيلتون إن لم تجد غرفة شاغرة في فندق «نيوستانلي». إن التقاءها بريتشي زاد بلايك تصميماً على ترحيلها والرحيل هو آخر ما تنوي فعله.

٩ ـ خسارة قلب

رددت مارسي الكلمة الوحيدة التي تعلمتها أمام موظفة الصندوق في المصرف: «جامبو».

ردت المرأة مبتسمة ابتسامة دافئة: «جامبو».

أكملت مارسي كلامها بالإنكليزية ثم سرعان ما قبضت المال الذي أبرقت في الليلة السابقة لزوج أمها بإرساله إليها.

في طريق العودة إلى الفندق دخلت إلى السوق الرئيسية.. ولفت اهتمامها بعض المنحوتات اليدوية، وانتهى بها الأمر لشراء واحدة منها.

كان في حقيبتها كتيباً عن الجامعة أخذته خلال جولتها الصباحية التي قامت بها قرب منطقة الجامعة.. وكانت تنوي دراسة المناهج الدراسية المتوفرة للأجانب. ولم تكن ترى سبباً يدعو بلايك إلى الاعتراض على تعلم اللغة الإفريقية، فهي في كل الأحوال خريجة المعهد العالي في اللغات، وتعلم هذه اللغة يملأ أوقات فراغها بانتظار أن يغيّر بلايك رأيه.

ذهبت إلى مكتب عقاري ليساعدها في إيجاد شقة تستأجرها فلن يكون العيش في غرفة فندق باهظ التكاليف فحسب، بل غير موضوعي كذلك لأن الشقة ستشعرها بالراحة، وستظهر لبلايك أنها تريد لزواجهما النجاح.

دخلت مارسي إلى ردهة فندق «نيوستانلي» بعد السادسة بقليل، وسألت مكتب الاستقبال إن كان لها رسائل.. كانت قد تركت رسالة لكارل مع حارس المبنى الذي يسكنه بلايك ليتصل بها.. فعلى شخص ما أن يتأكد من ذهاب بلايك إلى الطبيب.

عندما دخلت إلى غرفتها سمعت صوتاً أجفلها:

ـ آن لك أن تعودي.. لقد أوصلني كورتني منذ ساعات!

كان جسد بلايك الفارع الطول يحتل غرفة الفندق وفي الواقع لم تدهشها رؤيته لأنها حضرت نفسها من قبل لأسوأ الاحتمالات.

ـ كان عليك ليلة أمس التحلي ببعض الأدب فتعلميني بعزمك على مغادرة البيت.

بدا لها غاضباً مع أنه يسيطر على أعصابه:

ـ لم أجد ضرورة إلى ذلك، وفي الحقيقة أنني فضلت الرحيل على الشجار أمام كارل هذا الصباح.

لم تتحرك عضلة في وجه بلايك، وكأنما قُدّ وجهه من صخر.

ـ أين كنت طوال النهار؟ قال مدير الفندق إنك خرجت قبل الثامنة صباحاً.

خفق قلبها قليلاً.. هل شعر بالقلق عليها؟

ـ قررت تأمل مناظر نايروبي.

ـ بمفردك؟

ـ لا بل قضيت الوقت مع جماعة من السائحين.

نبض العرق عند صدغه:

ـ لقد فاتتك طائرة اليوم ولكنني حجزت لك على طائرة الغد.

مد يده إلى جيبه وأخرج تذكرة السفر الكريهة، وأكمل:

ـ أتوقع أن تكوني عليها، سيرافقك كارل، ويساعدك في حمل حقائبك ثم سيستغل الفرصة لبحث أمر طلاقنا.

أخذت التذكرة منه وأعادتها إلى جيب سترته:

ـ احتفظ بها لأنني لن أحتاجها.

كان كقنبلة موقوتة على وشك أن تنفجر:

ـ إن لم تسافري بقيت وحيدة في بلد غريب.

ـ أنا امرأة ناضجة بلايك ومتزوجة أيضاً.

ـ ليست نايروبي بالمكان المناسب لامرأة جميلة مارسي. أنت لا تعرفين المدينة أبداً وبناء على ذلك ستكونين صيداً سهلاً.

ـ هذا شأني أنا.

ـ لست في لندن يا مارسي.

ـ لقد ذكروا لي في مكتب التسجيل في الجامعة، أن العديد من العزباوات يسكنّ في شقق قرب الجامعة.. ومن الواضح أنهن على ما يرام في هذه المدينة الكبيرة الشريرة.

انعقد حاجباه بشدة: «هل تعنين...؟!»

جعله قرع مفاجيء على الباب يصمت، أسرعت مارسي لترد شاكرة في نفسها صاحب هذه المقاطعة.

صاحت بابتهاج: «كارل ادخل».

ـ عظيم.. أنتما هنا.

ابتسم مشجعاً مارسي، ثم ربت كتف بلايك، أخذت مارسي منه حقيبة أوراقه ووضعتها على السرير..

قال: «لدي أخبار هامة.. لكن إن كنت أقاطعكما عدت لاحقاً».

ـ لا.. لا.. أبداً.. اجلس.. كنت أنتظر اتصالك بي.. لماذا لا أستدعي خدمة الغرف لنطلب العشاء؟ استخدم الحمام ريثما أطلب الطعام.

ـ شكراً لك عزيزتي.

واتجه إلى الحمام أما مارسي فرفعت السماعة لتطلب العشاء

ولكنها في الوقت نفسه راقبت بطرف عينها بلايك وهو يتحسس طريقه نحو كرسي، حيث خلع سترته.. ثم فك ربطة عنقه.. أعادت مارسي السماعة إلى مكانها، تتمتع بمنظره. ولكن خفقات قلبها تضاعفت، فقربها منه يؤثر فيها دائماً.

ـ لم ننه حديثنا مارسي.. لذلك لا تفكري في أنني مغادر مع كارل حين يريد الذهاب.

ـ ولماذا أفكر في ذلك؟ فأنا على العكس أريد أن تبقى!

شعرت بالرضى لأنها رأت أصابع يديه تتحول إلى بيضاء وهو يشد ظهر الكرسي.

ـ تركت حقيبة في مكتبي بالأمس، ولقد حملتها إليك، إنها في الخزانة.. وما دمت ترفضين مغادرة نايروبي، فلماذا حضّرت تلك الحقيبة؟

ـ عندما قصدتك بالأمس أملت أن نتناول العشاء في فندق، لنرقص ونتكلم ولنمضي بعد ذلك ليلتنا فيه.

قبل أن يرد، عاد كارل إلى الغرفة مشمّراً عن ساعديه.. عرفت مارسي من خلال ملامح وجه بلايك أن ما قالته هو آخر شيء توقع سماعه..

ردتها كلمات كارل إلى الحاضر: «هل أخبرت مارسيلا بما اكتشفناه؟»

ساد صمت قصير: «لا لم أخبرها».

ارتفع حاجبا كارل الكثيفين بتساؤل واضح أما بلايك فأردف سائلاً:

ـ هل تمكنت من الاستماع إلى تسجيل ماكماهون؟

ـ فعلت أكثر من هذا.. أسمعتها للجنة التحقيق قبل مجيئي إلى الفندق.

كانت عيناه الرماديتان تشعان إثارة وهو يجلس في مقعد قبالة مارسي، وأكمل:

ـ اتضح كل شيء بأسرع مما توقعت، الفضل يعود إليك مارسيلا.. متاعب بلايك على وشك الانتهاء.

مالت إلى الأمام، وعلى وجهها ذهول:

ـ وماذا فعلت؟

ـ أخبرها يا بلايك.. على أي حال، لولا المعلومات التي ذكرتها أمامك لظللنا في ضلالنا أسابيع أخرى.

بدا لها من تعبير وجهه المضطرب أنه لا يحبذ فكرة شرح شيء لها..

أخيراً قال:

ـ هل تذكرين حديثنا عن ريتشي ليلة أمس، لقد أخبرتني في خضم الموضوع عن طفله الذي فقده وما إن قلت إن الحادثة وقعت منذ سنتين حتى برق شيء ما في ذاكرتي فقررت الاتصال بلوسي في «بيرث».

أحنت مارسي رأسها منتظرة بقية القصة، في ترقب وانقطاع أنفاس.

ـ لم تكوني فقط صادقة في كل ما قلته عن ريتشي، بل اكتشفت كذلك لماذا تركته لوسي.. لقد تشاجرا بمرارة بسبب ابتزاز غرانت يونغ له. هذا، إضافة إلى ما هو أهم.. خسارة الطفل من لوسي فتركت نايروبي فترة للتجربة ولتوضيح الأمور.

دارت عيناها ذهولاً:

ـ ابتزاز؟ غرانت يبتز ريتشي؟

مرر يديه في شعره قلقاً، وكأنه يجد صعوبة في الاعتراف:

ـ قوانيني في الشركة صارمة جداً مارسي.. ممنوع العبث خلال دوام العمل. في إحدى الأمسيات منذ سنتين، خرج ريتشي ساخطاً لأنه

علم بأن الجنين قد أُسقط وكان أن قضى الليل ساهراً في إحدى الحانات ولكن الوقت لم يكن جزءاً من دوام العمل بل حدث أمر طارىء في المنجم استدعى وجود رئيس المهندسين لأنني يومذاك كنت في لندن. ويبدو أن غرانت وجده في الحانة فلمَّا أخبره بما جرى سارع ريتشي لحل المعضلة على الرغم مما يعانيه ثم حدث أن فاجأ غرانت يونغ في مكاتب الشركة يطلع على بعض الخرائط التي لا دخل له فيها.. وكانت خرائط لمنجم «نايڤانا» الذي لا يحق لأحد الوصول إليه إلا لي ولريتشي. عندما واجهه ريتشي سارع غرانت يهدده بفضح أمره أمامي وإخباري بالمكان الذي وجده فيه ليلة الحادث الطارىء. وكان يعلم أنني سأطرده إن عرفت.. أو آمن أنني سأطرده.

اتضح لمارسي كل شيء..

أردف بلايك: «لم يبلغ ريتشي عن غرانت ولكنه أخبر لوسي بما حدث، فتوسلت إليه أن يبلغني».

ـ وهل فعل؟

ـ لا.. كان خائفاً جداً.

يعرف كلاهما سبب خوفه:

ـ ولم يخبرني عن الليلة التي أرسله فيها غرانت في مهمة فاشلة لا وجود لها ليلة احتراق منزل المزرعة.

ـ إن هذا لرهيب بالنسبة لريتشي.

ـ هذا صحيح.. بعد ذلك، بدأ غرانت يثير الشكوك حول تصرفات ريتشي، وانتشرت الشائعات كالنار في الهشيم.

أضافت مارسي: «وهو بريء من كل التهم».

دفع بلايك نفسه بعيداً عن الطاولة وعلى وجهه العذاب.

ـ عرفت لوسي ما يجري، وتوسلت إلى ريتشي أن يتقدم إليّ ولكنه رفض.. لأنه شعر بأنه لو راقب غرانت عن كثب لضبطه بالجرم

المشهود.

ـ آه! بلايك.. يا للرجل المسكين.

هز رأسه: «ادعى لي غرانت أن ريتشي تحرش بزوجته قال وكان أن صدقته كالغبي».

ـ كما صدقت أنه تحرّش بي.. يا للمأساة..

نهض بلايك عن الطاولة وتمسك بالكرسي يسند نفسه، وأكمل:

ـ عندما حان وقت الترقية رقيت غرانت وأعطيته منصب رئيس المهندسين، ووضعت ريتشي تحت الاختبار بعدما أخفضت درجته حتى يبرهن عن جدارته مرة أخرى. غضبت لوسي منه في ذلك الوقت، لأنه يرفض أن يفعل ما يساعد نفسه.. وهددت بتركه على أمل أن يدفعه هذا إلى التحرك.. ولكنه رفض، لأنه أمل أن تنتصر الحقيقة في النهاية.

تهدج صوته بالعاطفة.. فصاحت مارسي متهللة فرحاً: «ولقد انتصرت!»

أدار رأسه إليها:

ـ إنما لم يحدث النصر بدون عواقب.

ـ شعر ريتشي على الأرجح بالإحباط وظن أن لوسي ستكون أفضل حالاً بدونه.

ـ هذه كلمات لوسي بالضبط.. أنت امرأة سريعة البديهة مارسي.

ضحكت بحزن: «لست سريعة البديهة ولكنني من خلال خبرتي في الحياة تبين لي أن الناس يميلون إلى الهرب وقت الشدة».

التقت عيناها بعيني كارل الذي كان شاهداً صامتاً فترة طويلة.

جعلت طرقة مرتفعة على الباب بلايك يرد قبل أن تتمكن مارسي من الوقوف. أدخل أحد السقاة العشاء ثم راحت تراقب مارسي بلايك وهو يُكرم الرجل ويرافقه إلى الخارج. إن زوجها يتصرف كرجل مبصر،

وبدا لها أنه قد يتكيّف مع عالمه المظلم.. لو تزول نوبات الصداع.

تمتم كارل وهو يصب العصير في أقداح طويلة الساق:

ـ يبدو لي الطعام لذيذاً.. الجميل في الأمر مارسي أن لوسي سمحت لبلايك أن يسجّل مكالمتهما.. وهي ستعود إلى نايروبي لتشهد في الجلسة الرسمية.

ـ هذا رائع.. أيعرف ريتشي هذا؟

تمتم بلايك:

ـ يعرف.. فقد أمضينا الليل كله في الحديث وكان أن تصالحنا.. ويجب أن أشكرك على هذا مارسي.. وعلى ما هو أهم من هذا.. من الواضح أن حقداً ترعرع في نفس غرانت منذ بضع سنوات.. لقد قلبت كل شيء رأساً على عقب حين دافعت عن ريتشي وعندئذ عرفت بغيرة غرانت المريضة مني.

اغرورقت عيناها بالدموع.

ـ ما أسعدني! يحبك ريتشي كثيراً، ويهتم بك. أعتقد أنه رجل رائع.

تنحنح بلايك: «أوافقك الرأي.. وأشكر الله لأنك دافعت عنه».

وكان هذا اعترافاً بجميلها.

أضاف كارل: «أشكر الله على هذا كذلك.. فبسبب شهادة لوسي وريتشي مجتمعين سأتمكن من كشف متآمرين آخرين في الشركة وأضف إلى هذا أن هناك تناقضات اكتشفتها أثناء دوراني في قسم الاستقبال، ويبدو لي أن الطرق كلها تقود إلى «رجل واحد».

قالت مارسي بهدوء: «إلى غرانت».

هز بلايك رأسه: «نعم وإلى بيلي واورايلي وآخرين. سأشعر بمتعة كبيرة عندما أضبطهم بالجرم المشهود».

أمسكت مارسي يده، ناسية ما بينهما من عداء.

ـ لا بد أنك الآن أسعد مخلوق على وجه الأرض بلايك.

وتدفقت الدموع إلى وجنتيها ولكنها لم تهتم لرؤية كارل لها، وأكملت:

ـ لم تكن تريد فعلاً بيع المزرعة لغرانت.

بعد صمت قصير، جذب بلايك يده منها، مدعياً أنه يرغب في شرب العصير.

ـ بلى مارسي.. الآن وأنا أعمى، لا أجد ما يدعو للاحتفاظ بها. لا أستطيع العمل فيها أو التمتع بها كما كنت في الماضي. على أي حال بالنسبة لغرانت ما زال عرضي بأن يكون له الخيار الأول قائماً.. فأنا لا أريد أن يشك في شيء في الوقت الراهن وبعدما يُستدعى هو والآخرون إلى الشهادة وتوجه التهم إليهم أطرح المزرعة مجدداً للبيع.. لقد وثقت به مدة طويلة وعليّ تحمله مدة أطول.

سمعت القرار الحاسم في صوته، فداخل قلبها حزن جديد، ولكنها سألت محاولة إخفاء ألمها:

ـ هل لديك دليل قاطع يثبت أنه مسبب الكارثة؟

قاطعها كارل: «أجل لدينا الدليل القاطع. كان ماكماهون مسؤول العمال في الخدمة ليلة الحادث، وشاهد بيلي واورايلي يدخلان إلى المكتب بغير إذن ولم تكن المرة الأولى. لقد هدده غرانت بأذية عائلته إن تكلم. وماكماهون شاهد غرانت يدخل إلى المنجم قبل الانهيار مباشرة، ولكنه خشي أن يتقدم بشهادة خوفاً من الانتقام. لقد ذهب ريتشي إلى المنجم ليلة أمس وتحدث إلى ماكماهون، وأقنعه بكشف الحقيقة، وسجل له كلامه.. لقد أوقعنا به عزيزتي..»

غطت ابتسامة عريضة وجه كارل.. وتحرك بلايك بقلق:

ـ أزال غرانت الدعائم الخشبية قبل أن تتحرك اللجنة.. وظن أن الملامة ستقع على كاهل ريتشي.

أردف كارل: «ارتكب غرانت أخطاء كثيرة.. أتذكرين مارسي أنني ذهبت مع جماعة من الضيوف إلى منزله ليلة الحفلة؟ في تلك الليلة أطلق العنان لكراهيته لشادويك.. لم يمدحه ولو بكلمة وكاد يخدعني لولا انغماسه في الحديث عن أخطاء ريتشي وعيوبه وتحرشه بالنساء.. وعندما أتى على ذكرك يا عزيزتي مارسيلا عرفت أن الرجل كاذب».

قال بلايك بصوت مرتفع ملؤه العذاب:

ـ كان يجب أن أكتشف الأمر منذ وقت طويل.. ما كان أشد غبائي!

التقت عينا مارسي بعيني كارل في تفاهم تام.. وقالت مترددة:

ـ بصراحة يا بلايك لو كان الموقف معاكساً، ورأيت لوسي تحاول التودد إليك لسممت شرابها.

أطفأت ضحكة كارل العميقة فتيل لحظة متفجرة..

أضافت: «أتعلم.. استغربت تصرف غرانت في المرة الأولى التي التقيت به. فقد ظلّ يحدق إليّ وإلى بلايك بإمعان ولكنني عزوت الأمر إلى إحساسه بالجرح لأن بلايك كتم عنه خبر زواجنا. هذا.. والآن، بعد معرفتنا الحقيقة أرى أنه يغار منك بلايك، ليس بسبب إنجازاتك، بل لأسباب أخرى كذلك. منها الاحترام والحب اللذان تنتزعهما من الناس وهذا ما لا يستطيع منافستك فيه.. لقد رأى أن عماك لم يؤثر في احترام الناس وفي محبة زوجتك إليك فصدمه ما رأى.

مد كارل يده يمسك يد مارسي بشدة.

ـ ما كنت لأقدر على تحليل الموقف أفضل منك.. لقد قاده حسده إلى الجريمة.. وسيدفع هو وشركاؤه الثمن باهظاً.

كانت لهجته قاسية وكأنه يقسم فارتجفت مارسي. وتابع كارل، وهو ينهض عن الطاولة متمطياً:

ـ هذا صحيح.. طلبت على سبيل الاحتياط من لجنة التحقيق وضع كل المشبوهين تحت المراقبة حتى يوم الجلسة.. وسيكونون في عداد الأموات إن حاول أحدهم التحرك.

أخذ كارل سترته وحقيبة أوراقه: «أعذراني سأعود إلى الشقة لأتصل بزوجتي وأزف لها بشرى براءتك بلايك، وبشرى عودتي إلى الوطن بعد وقت قصير..»

ربت على كتف بلايك ثم أردف: «لقد عشت وقتاً عصيباً ولكن الأمور العصيبة أصبحت وراءنا».

وقفت مارسي لترافقه إلى الباب: «سأرافقك».

ظل بلايك جالساً منتظر عودتها حتى يهاجمها.

تمتم كارل لها: «أراك في الصباح.. كوني جاهزة في السابعة».

وقبلها على خدها ثم سار بخطوات رزينة إلى المصعد فعرفت أنه سينفذ تعليمات بلايك من باب الولاء فقط.

أقفلت الباب خلفه، لا يستطيع كارل أن يفعل شيئاً إن لم يجدها في الصباح وعندئذ لن يتمكن بلايك من لومه..!

ارتدت على عقبيها تنظر إلى زوجها بخبث.. يتطلب الموقف تكتيكاً مختلفاً.

ـ لقد رحل.

ـ أجل.. لقد سمعت أن وجودك إلى جانبي أصبح غير ضروري. سأطلقك مارسي ولو حاولت مقاومتي لندمت على ذلك.

سحبت نفساً عميقاً ثابتاً: «لن أقاوم بعد الآن. لك أن تطلب الطلاق واعلم أنني سأوافق على ما تريد».

لم تلح على وجهه بارقة ما ولكن اللون جف من وجهه.. وسألها بصوت متحشرج:

ـ أتعنين ما تقولين؟

ـ نعم شرط ألا تطلب مني إعادة خاتم الخطوبة، إنه الذكرى الوحيدة الباقية لي.

انتزعت خاتم الزواج الذهبي، وتقدمت إليه، تضعه في يده.. وعندما نظرت إلى وجهه، لم تشاهد فيه أي تعبير إطلاقاً.

تشنج لبرهة قبل أن تطبق يده على الخاتم الذي وضعه في جيب قميصه فكان أن قضت هذه الحركة المتشنجة على بصيص الأمل الواهي، فقد كاد تصميمه على المضي في طريقه بمفرده يخنقها..

أخيراً سألها يكسر الصمت الطويل المؤلم:

ـ ماذا ستفعلين مارسي؟

ارتفع ذقنها: «لا شأن لك في ما سأفعل لاحقاً. لقد زودتني بتذكرة سفر ولم يعد بيننا شيء أبداً».

راقبت كيف اشتدت قبضته على حافة الطاولة.. وأكملت:

ـ إن نتج طفل عن ليلتنا اليتيمة فهل تريد أن أخبرك؟

ـ مارسي!

سحبت نفساً عميقاً مسرورة برؤيته عاجزاً عن السيطرة على نفسه.

أردفت: «كما قلت أنت، إنه مجرد احتمال.. أنا أحاول فقط افتراض الاحتمالات لأنها المرة الأخيرة التي يرى أحدنا فيها الآخر».

نهض ببطء ووقف على قدميه، ومد يده إلى ما وراءه ليتناول سترته، ولكنه كان يتحرك كرجل ازداد عمره ثلاثين سنة.

ـ إن كنت حاملاً فاتصلي بكارل لأنني عندما أعلم سأفتح حساب ائتمان من أجله.

أخذت زمام شجاعتها بين يديها وقالت:

ـ وعندما أتزوج مرة أخرى فهل تريد أن يحمل الطفل اسمك أم اسم زوجي؟

أصبح فمه خطاً رفيعاً من فرط الغضب.

ـ لماذا هذا الهوس كله بطفل لا وجود له حتى الآن؟.

ابتسمت: «لم تجب عن سؤالي.. أريد كل الأمور القانونية أن تنتهي الآن، بلايك.. لا أريد أن أقوم برحلة لا لزوم لها إلى هذا المكان في المستقبل بسبب أمر كهذا».

كان وجهه الشاحب أبرز مثال لغضبه: «سيهتم كارل بكافة الأمور القانونية».

وبدأ يتحسس طريقه إلى الباب..

ـ إذن لم يعد بيننا ما يقال. وداعاً بلايك.

أمسك مسكة الباب: «مارسي.. قبل أن أذهب أسألك إن كنت بحاجة إلى شيء؟»

نظرت إلى زوجها بدهشة: «حريتي تكفيني».

ارتفع صدره وهبط: «هل ستعيشين في لندن مع والديك؟»

ـ ربما لا.. ولكن لا شأن لك بمستقبلي إلا إن كنت بهذا تطلب مني ألا أتركك..

فتح الباب بحدة.. ثم ابتعد عنها يتحسس الجدار بخطوات غير ثابتة حتى وصل إلى المصعد، أما مارسي فظلت واقفة في الباب تراقبه حتى اختفى عن ناظريها. دفعها قلقها على سلامته إلى الاتصال بمكتب الاستعلامات والطلب إليهم أن يساعدوا السيد سايمور للحصول على تاكسي.. لم تكن تعرف ما إذا كان لونه الرمادي الشاحب، عائد إلى إحدى نوبات الصداع أم إلى رحيلها. ولكنه في أي حال بدا لها مريضاً جداً.

لم تتعمد حتى هذه الليلة قط خداع بلايك.. لقد صدقها حين قالت إنها راحلة غداً ولكنها لن تستطيع الرحيل. إنه حياتها، والمستقبل موحش بدونه.

سارعت إلى الخزانة تسحب حقائبها ولم يطل بها الوقت حتى

وضبت ملابسها ثم بعد ذلك مزقت تذكرة السفر ودفعت أجرة الغرفة وانطلقت خارج الفندق.

ما هي إلا نصف ساعة، حتى كانت في فندق الهيلتون، تتناول العشاء مع ريتشي.. كانت الغرفة الوحيدة المتوفرة جناح عروس.. يا لها من سخرية.. ولكنها قبلت بها..

طلبت العصير إلى غرفتها، ثم خرجت إلى الشرفة الملحقة بجناحها. الليلة باردة ولكنها مريحة، وفيما كانت تجلس على كرسي طويل، تطلعت إلى المدينة من علو خمس طبقات فشعرت بوحشة رهيبة.

ظلت مارسي مدة ساعة تحدق إلى الظلام، تفكر في طريقة ما لتتقرب من بلايك. آه! لن تبتعد عنه مهما فعل. إنه بحاجة إليها مع أنه ما زال يرفض الاعتراف أو التصديق بحاجته تلك والأهم من ذلك أنها تحتاجه أكثر مما يحتاجها.

أوت إلى فراشها وهي تفكر في البحث غداً عن شقة، ولكنها قررت الاتصال بكارل قبل ذلك لتشرح له سبب تركها الفندق بدون علم أحد.. فكارل الآن هو أملها الوحيد الذي قد يدفع بلايك للانصياع إلى المنطق بشأن صحته.

في الصباح التالي تناولت فطورها في غرفتها، ثم اتصلت بكارل. ولكنها لم تتلق رداً فحاولت بعد نصف ساعة ولم تتلق أيضاً رداً.

حاولت في الساعتين التاليتين الاتصال به ولكن بدون جدوى. ترى هل ذهب إلى المكتب ليقول لبلايك إنها اختفت.. لن تجرؤ مهما كانت الظروف على الاتصال به هناك.

عند الظهر استقلت سيارة أجرة وتوجهت إلى نيوستانلي على أمل أن تجد رسالة منه.

عرفت شعره الرمادي الحديدي اللون، وأسرعت إليه.. فإذا هو

يتحدث إلى الموظف، والانزعاج بادٍ على وجهه.

ـ كارل؟

تلاشى عبوسه حالما سمع صوتها وصاح: «مارسي!»

وضع حقيبة أوراقه من يده وحضنها بقوة:

ـ أين كنت؟ بحثت عنك في كل مكان: في المطار وفي محطة القطار، وفي أمكنة تأجير السيارات.. لم أتصور ما قد تتعرضين له حينما عرفت أنك غادرت الفندق ليلة أمس.. يا فتاتي العزيزة.. لقد عانيت بسببك من أسوأ حالات القلق.

اجتاحتها أمواج من الإقرار بالذنب.. كان وجه كارل شاحباً شحوباً لم تشاهد مثله من قبل فقالت بأنفاس مقطوعة:

ـ أنا آسفة.. ولكنني رفضت العودة إلى لندن هذا الصباح أو مناقشة أمر الطلاق.. يظنني بلايك رحلت ولكنني لن أستطيع تركه أبداً. أحبه كارل.. و.. و.. لا أريد أن يلومك على عصيان أوامره.. لذلك فكرت..

تمتم وهو يضمها بين ذراعيه: «مارسي!»

استرخت بين ذراعيه وراحت تنتحب بصمت على كتفه، غير مبالية بنظرات النزلاء.

ـ لقد جعلك تعانين.. أليس كذلك؟

لم يكن ينتظر رداً على سؤاله، أعطاها منديلاً أبيض ناصعاً.

ـ استخدمي هذا.

قالت وهي تمسح عينيها:

ـ أعرف أنه يحبني كارل.. آه! ليته يمنح زواجنا فرصة.. وهناك مسألة صداعه التي تقلقني كثيراً.. لم أستطع النوم ليلاً.. إنه بحاجة إلى معاينة طبيب، لكنه عنيد.. وإن ثابر على هذا المنوال فلن يقدر على إدارة شركته.. تزداد نوبات صداعه سوءاً وإن لم تستطع إقناعه

اضطررت للاتصال بأبيه الذي سيسارع إلى المجيء. على بلايك أن يصغي إلى أحد ما!

ربت كارل رأسها: «تعالي سنجلس الآن».

رافقها إلى المقاعد المثبتة على جدار البهو، يمسك يديها الباردتين بين يديه.. رفعت مارسي رأسها إليه فرأت الشفقة والعطف في عينيه:

ـ لدي ما أقوله لك مارسي.. سأبوح لك بسرّ مؤتمن عليه، لكن يحق لك معرفة الحقيقة ليطمئن بالك فما من أحد يستحق راحة البال أكثر منك.

صاحت وقلبها يخفق خوفاً:

ـ هل أصابه مكروه؟ لا تخفي عني شيئاً كارل!

ـ مارسي.. بلايك دخل المستشفى في وقت متأخر من ليل أمس.

بدأت الدموع تتساقط مرة أخرى:

ـ علمت أن شيئاً كهذا سيحدث..

تحركت تريد النهوض ولكنه أمسك يديها بحزم وقال بلطف:

ـ اسمعيني أولاً.. منذ أيام، أصيب بنوبة صداع قاسية في الشقة فغاب عن الوعي لدقائق، وعندما قلت له إنني سأطلب سيارة إسعاف، قال إنه ذهب إلى الطبيب وإنه يعرف ما يسبب صداعه. لقد أجريت له صورة أشعة جديدة ووجدوا أن الشظية التي في رأسه قد تحركت من مكانها، ولهذا يشعر بهذه الآلام المبرحة. لقد قال الطبيب إنه بسبب الوضع المستجد قادر على إجراء عملية جراحية، لاستخراج الشظية.. وبلايك الآن يخضع للعملية.

هزت رأسها مذهولة، تحاول أن تستوعب قوله:

ـ لا أصدق.

ابتسم لها ثم ترك يديها:

ـ إنها الحقيقة، ولم يشأ بلايك أن تعرفي شيئاً. جعله ما حدث بينكما ليلة أمس يقرّر إجراء العملية وعلى ما يبدو أن الطبيب أراد إجراءها منذ أيام.

أغمضت عينيها، تتساءل ماذا يعني هذا كله.

أردف كارل: «خضع بلايك للتخدير هذا الصباح وهو مؤمن أنك عائدة إلى لندن.. وإن عرف أنك ما زلت هنا، وأنك تعرفين بالعملية فقد يؤثر هذا في شفائه. أتفهمين قصدي؟»

ـ إذن، يظنك رافقتني إلى الطائرة هذا الصباح؟ ألم تخبره بالحقيقة؟

هز رأسه الرمادي:

ـ كذبت عليه كما كذبت أنت عزيزتي. هو مؤمن بأنك ستمنحينه الطلاق وأنك خرجت من حياته للأبد.. عندما لم أعثر عليك في غرفتك هذا الصباح عرفت أنك اختفيت عامدة متعمدة.. وكنت متلهفاً للاتصال بك لأخبرك بما جرى لبلايك.

نظرت إليه بعينين متوسلتين:

ـ ماذا سأفعل؟ لا أستطيع تركه!

تنهد: «لم أظن لحظة أنك قد تتركينه ولكن عليه في الوقت الراهن ألا يعرف بوجودك هنا. أنصحك بالبقاء قريبة وبالمقاتلة واعلمي أنك في النهاية ستفوزين».

رفعت نحوه وجهاً محطماً:

ـ كيف تقول هذا وهو يعتقد أنني موافقة على الطلاق؟

ـ أقول هذا لأنني أعرفه منذ سنوات طويلة.. عندما اتصل بي بعد الحادثة، لم أقدّر لزواجكما النجاح. وبصراحة، لم أتوقع رؤيتك في كينيا خاصة بعدما أخبرني بأمر الرسالة الفظة التي أرسلها إليك.

ـ كنت سأتجاهل الرسالة وأهرع إليه فوراً.

رد ضاحكاً: «أصدقك.. ولكنه رغم كل شيء كان عازماً على إنهاء زواجكما.. ثم اكتشفت استقراركما في المزرعة ثم علمت أنه طلب منك المساعدة».

ارتجف صوتها: «سمح لي بالبقاء لأنك طلبت منه إيهام الجميع باستقراره».

أمسكت يداه القويتان بكتفيها ليجبرها على النظر إليه:

ـ في هذه النقطة تخطئين لأنني لم أطلب منه شيئاً بل في الواقع لم أرغب في أن تكوني في نايروبي فقد خشيت عليك مما قد يحدث ولكنه وجد حجة ليبقيك معه، هذا دون الاعتراف بأنه يريدك زوجة له.

نظرت إليه دقيقة كاملة فراح مغزى ما قاله ينغرز في عقلها. ارتسمت ابتسامة على وجهها الذي شع فجأة.

احتضنت كارل بشدة:

ـ شكراً لإخباري هذا كارل.. كنت بحاجة ماسة إلى هذه الكلمات.

تلاشت ابتسامته: «سيطيح بلايك برأسي، مارسي».

ـ أعرف.

طافت نظرته الخبيثة على قسماتها الرقيقة:

ـ عليك معرفة أمر آخر. إنما على الدكتور هارمان أن يخبرك به بنفسك.. لماذا لا تذهبين إلى المستشفى الآن على أن أنضم إليك بعد ساعة، تقريباً؟

ـ شكراً لك كارل.

وطبعت قبلة على خده، ثم أسرعت إلى الخارج لتستقل سيارة. كان قلبها يخفق بشكل مؤلم في صدرها.. ما هو الذي تجهله حتى الآن؟ إن كان الطبيب يريد رؤيتها، فلا بد أنها أخبار سيئة. غطت وجهها بيديها متجمدة من الخوف.. هل حياة بلايك في خطر؟

لا يمكنها أن تخسره الآن.. لا يمكنها!

١٠ ـ ينتهي العالم على بابه

تقدم رجل يضع قناع الجرّاح نحو مارسي التي كانت تذرع غرفة الانتظار جيئة وذهاباً: «سيدة سايمور».

لم تعرفه حتى نزع القناع:

ـ أوه سيد هارمان.. شكراً لله!

ـ ظننت أنك عدت إلى انكلترا.

ـ هذا ما يظنه بلايك، أريد أن أسألك عن حالته. أخبرني كارل بأمر العملية الجراحية ولكنه أضاف أن لديك ما تقوله لي.. أرجوك.. كيف حاله؟ يجب أن أعرف.

ـ كانت الجراحة ناجحة.

همست: «الحمد لله.. لقد توسلت إليه حتى يزورك في الأسبوع الماضي ولكنه لم يصغ إلي.. واستمر صداعه يزداد سوءاً».

ـ هذا أفضل، وإلاّ لفات الوقت.

أحست بالدوار: «فات الوقت؟ أتعني أنه كان سيموت؟»

أسندت نفسها إلى الذراع التي التفت على كتفيها:

ـ تعالي واجلسي.

قادها إلى أقرب كرسي: «يبدو أن زوجك لم يشأ إخطارك بحالته. ماذا قال لك؟»

ـ لا شيء.. ولكن حتى الأعمى قادر على رؤية الآلام المبرحة

التي كان يعاني منها.

ـ ألم يذكر أمامك نتائج الفحوصات التي أجراها في الأسبوع الماضي؟

ـ لم أعرف بأنه زارك حتى أخبرني كارل، أقصد السيد هيريون.

ضاقت عيناه: «هذا يعني أن السيد هيريون شرح لك أن الضربة التي تلقاها على رأسه حركت الشظية من مكانها، ولهذا أخذ يعاني من تلك الآلام كلها.. أترين.. عندما كانت الشظية في مكانها الأصلي، كانت في موضع حساس لا نستطيع معه إجراء عملية لاستئصال الشظية التي كادت تتلف عصب البصر نهائياً. ولكن حينما تحركت من مكانها، كشفت صورة الأشعة أن العصب قد يشفى، وبدأ بعض النور يؤثر في العصب.

وقفت مارسي على قدميها تصيح: «هذا يعني أن العصب لم يصب بأذى».

ـ هذا صحيح سيدة سايمور.. ولكنني لم أتأكد قبل إجراء العملية فيما إذا كان العصب سليماً أم متلفاً فقد كانت نسبة بقائه سليماً متدنية وشرحت هذا لزوجك.. في البداية، لم يرَ ما يدفعه للخضوع إلى عملية غير مضمونة النتائج أما ليلة أمس فعدل عن رأيه وقرر إجراء الجراحة في أسرع وقت ممكن.

ضمت مارسي يديها إلى صدرها وسألت بصوت مخنوق:

ـ قل لي.. ماذا وجدت؟

نهض عن الكرسي: ما أملت أن أجده بالضبط.. لست على حق دائماً، ولكن في هذه المرة حدث أمر نادر الوقوع إذ لم يصب عصب العين بسوء أما نسبة حدوث هذا الأمر فواحد على مليون. أتدركين هذا؟

ـ أيها الطبيب!

ـ مدي يدك سيدة سايمور.

عندما مدت يداً مرتجفة إليه تناول شظية من جيب بذلة الجراحة.

ـ أظنها ذكرى تودين الاحتفاظ بها.

نظرت إليها ثم أطبقت يدها عليها.. لقد دخلت هذه القطعة المتناهية في الصغر إلى جمجمة بلايك فحرمته من بصره، وها هي الآن تمسكها في كفها. إنه لأمر لا يصدق! لم تكن تعرف ماذا ستفعل بها فرفعت رأسها إلى الطبيب:

ـ وهل تقصد أنه سيسترد بصره؟

تنهد الطبيب تنهيدة عميقة:

ـ علينا الانتظار. كان عصب العين ملتوياً منذ شهر لذا اضطررت إلى تقويمه.. سيمضي بعض الوقت قبل أن يعود إلى طبيعته وقد لا تتجدد خلاياه وبكلمات أخرى، قد يبقى أعمى.

ـ متى نعرف النتيجة؟

ـ يصعب الجزم. ربما بعد أسبوع أو عشرة أيام.. سنبدأ منذ الآن لعبة الانتظار ولكن تذكري أنني لا أضمن شيئاً.

ـ أعرف.. ولكن مجرد الأمل معجزة.

ـ المعجزة هي الإصابة التي تلقاها على رأسه. فلولا السقطة لبقيت الشظية في مكانها تضغط بشكل دائم على العصب.. ولولا إسراعنا في إجراء العملية لفات الوقت.. أكاد أقول إن يداً خفية دفعتك من فوق الحصان على زوجك.. ويا لحظه!

ـ لا أكاد أصدق ما تقول.. لقد تركني بلايك جاهلة بما حدث.

ـ أعرف هذا.. لا أريد بسبب دقة الوضع أن يعرف بوجودك، لأنني لا أرغب في أن يتعرض في هذه المرحلة إلى أي خطر عاطفي مهما كان. يلعب العقل، والإرادة، دوراً في عملية الشفاء.. قد يذكره وجودك بما سيخسره إن فقد بصره، وقد يسبب له هذا الشعور إحباطاً.

وضع يده بلطف على ذراعها: «أهلاً بك في المستشفى وفي غرفته ولكن بدون أن يصدر عنك صوت يدله على وجودك. سأطلب من الممرضات تجاهلك حين ننزع الرباط ونرى النتيجة النهائية.. والآن أعذريني».

أمسكت يده الضخمة بين يديها:

ـ شكراً لك.. ولكن الشكر لا يعبر عن شعوري.

ـ سيبقى في غرفة الإنعاش حتى التاسعة، لماذا لا تأكلين في هذه الأثناء لقمة؟ أمامك انتظار طويل.

ربت كتفها واستدار إلى قسم التمريض في آخر الردهة.

قبلت نصيحة الطبيب فتوجهت إلى الكافيتيريا لتتناول العشاء علّها تعزز قواها.

فجأة شعرت بأنها لا تستطيع إخفاء الأمر السعيد، فتركت الكافيتيريا بحثاً عن هاتف.. لم يعد يهمها أن توقظ الجميع فبلايك يحتاج إلى دعوات من يحبه.

في البداية اتصلت بأبيه ثم اتصلت بوالديها وكان أن وعدتهم بالاتصال حين حدوث أمر جديد.

كان كارل يذرع مكتب الانتظار حين عادت مارسي إلى طابق العمليات.. فأمسكت يده بسرعة.. ظل كارل معها عدة ساعات، كانا خلالها يتحدثان بهدوء بين الفينة والأخرى، ولكنهما قضيا معظم الوقت في صمت قلق. في التاسعة، أعلن كارل عزمه على الرحيل، شارحاً أنه بحاجة إلى تحضير بعض الوثائق لليوم التالي.. عانقته بقوة، وقلبها مفعم بالعرفان بالجميل.

في التاسعة والنصف، تناهى إليها صوت من الغرفة الخاصة.. فوقفت في ترقب متوتر، تنظر إلى الممرضات وهن يجررن عربة زوجها الذي هرعت إليه عيناها. رأته مضمد الرأس مغمض العينين وشمت

رائحة غرفة العمليات تفوح من جسده ومن الشراشف التي تغطيه.. ولولا تأكيد الطبيب إلى أن العملية ناجحة لذعرت لمرآه.

حوالي منتصف الليل، لاحظت دلائل تشير إلى اقتراب موعد يقظته.. كانت الممرضة قد عاينته ولكنه ظل بلا حراك.. أما الآن فقد بدا قلقاً، يصدر همهمات غير مفهومة.. ضغطت مارسي زراً على الحائط تستدعي رئيسة الممرضات وما هي إلا لحظة حتى دخلت السيدة كورلي في زيها الأبيض، وتقدمت بسرعة إلى بلايك تمسك يده بين يديها:

ـ لا بأس عليك سيد سايمور.. سترى.

اتضح كلامه بالتدريج وتعلقت يده بيدها، مما ملأ صدر مارسي بحسد كبير.. وهمس:

ـ ما الذي يحدث؟ ما هذه الألوان التي تعج في رأسي.. مارسي؟ مارسي؟

كانت صيحته لجوجة كادت معها أعصابها تتدمر.. أرادت أن تضمه بحب وحنان.

عاد يتمتم بانفعال ظاهر:

ـ مارسي.. حبيبتي.. هذه الألوان..

ردت السيدة كورلي بلطف: «لا بأس عليك.. أنت بخير».

رمت نظرة بليغة إلى مارسي التي كانت واقفة إلى جهة السرير الأخرى ثم أكملت:

ـ لقد انتهت العملية الجراحية سيد سايمور، وكانت ناجحة.. ستكون بخير وقريباً سترى.

مسحت يده بحنان فهدأ روعه وعاد إلى النوم.

استطاعت في الأيام الثلاثة التالية الوقوف على قدميها لأنه ناداها باسمها في أول لحظة وعى فيها.. كانت مجبرة على البقاء صامتة كما

أمرها الطبيب..

كانت تنام في الفندق، ثم تعود إلى غرفته قبل أن يستيقظ في الصباح.. ولكنها رغم بقائها معظم الوقت معه لم تكتف منه ولاحظت مارسي أنه بدأ يسترد صحته، كان يتحدث عن صور وألوان تمر دائماً في رأسه.. وشرح لها الطبيب هارمان سراً أن هذا يعني عودة عصب البصر إلى طبيعته..

في وقت ما خلال الأسبوع أزال الطبيب الضمادة فجلست مارسي على كرسي ويداها في حجرها.

ـ حسناً بلايك.. سأزيل آخر الضمادات الآن ولكن لا تتوقع رؤية شيء في الوقت الحالي، فما زال أمامك بعض الوقت، سأعطيك نظارة خاصة، تضعها على عينيك نهاراً، وتخلعها ليلاً. هل من أسئلة؟

ـ أبداً.

عبّرت هذه الكلمة المختصرة عن شدة قلقه وتوتره.. لقد بدأ الانتظار..

عاين الطبيب جرحه ثم وضع فوقه القطن واللصوق، وبعد ذلك أعطى بلايك النظارة التي وضعها فوراً. عندما قاس له نبضه سأله: «كيف تشعر؟»

ـ وكأن حملاً أزيح عن رأسي.

ـ الرأس عادة حساس جداً لأي ثقل زائد أو ضغط.. تحرك ببطء في الساعتين القادمتين.. حتى تعتاد على خفة وزن الرأس.

سمعت بلايك يتنهد، ثم يسأل:

ـ كم من الوقت سيمر قبل حصول تغيير في بصري؟ هذا إذا حصل.

عضّت مارسي شفتيها، متمنية لو تستطيع تشجيعه.

ـ إنه أمر الله إذ يختلف الوقت بين شخص وآخر. سترافقك

الممرضة بعد الظهر لتتمشى في الممر وعندما يعود جسمك إلى طبيعته ستعود عيناك إلى طبيعتهما أيضاً، إنها أصعب الأوقات بلايك.. فلا تفقد الصبر ولا تتسرع. ولا تفكر كثيراً.. اصغ إلى الراديو أو التلفزيون.. أطلب من أصدقائك أن يقرؤوا لك كتاباً ما.

رد بلايك بعجرفته القديمة:

ـ أظنني سأستغني عن الاقتراح الأخير.

ابتسمت مارسي واستدار الطبيب نحوها يحييها.

هكذا بدأ الروتين لمدة ثلاثة أيام متتالية.. كان خلالها الطبيب يعاين بلايك صباحاً ومساء ولكن لم يطرأ أقل تغيير. كانت شهيته ضعيفة، مع أنه قام بجهد بطولي لئلا توبخه الممرضات. في اليوم التاسع، راح يتحرك في الغرفة كما كان يفعل قبل الجراحة، مستخدماً العكازين ليشق طريقه. كان يحافظ على ثقته بنفسه غير أن مارسي شعرت بعدم رضاه وبخوفه..

في التاسعة من ذلك المساء، جاء الطبيب لرؤيته.. كان متمدداً على كرسي أمام التلفاز، مزيلاً نظارته فبدا لمارسي شخصاً طبيعياً مبصراً، نام بسبب السأم.

هزه الطبيب بلطف: «بلايك؟ اصعد إلى السرير، أريد أن أفحصك».

نهض بلايك ببطء على قدميه، وتوجه إلى السرير رافعاً نفسه إلى الفراش، ثم استسلم لفحص الطبيب الذي أطال التفحص على غير عادة.. ثم قال:

ـ شفاؤك رائع بلايك.. صحتك ممتازة.. هل من تغيير؟

ـ لا.

ـ لا يدهشني هذا. تلك الأعصاب تأبى العمل.. إنها مخلوقات صغيرة لعينة.

أمسك بلايك يد الرجل بشدة:

ـ لا تمازحني باري..! أسمع نبرة المزاح في صوتك.

ـ إذن أنت ترى ما لا أرى.. ما زلت ضمن المهلة الطبيعية للشفاء.. بعد عشرة أيام بالضبط سأبدأ بممازحتك.

سمعت مارسي تنفس بلايك الحاد: «أنا آسف».

وترك يد الطبيب:

ـ لا تكن آسفاً.. أراك صباحاً قبل أن تنام. سأرسل لك ممرضتين لتدلكا ظهرك فالتدليك سيساعدك على الاسترخاء.

استغلت مارسي الفرصة وخرجت مع الطبيب إلى الخارج.

ـ أتسمح لي أن أكون إحدى الممرضتين، هذه المرة فقط؟ سأترك كل شيء للسيدة كورلي.

ـ لا أعارض أبداً.

بعد بضع دقائق دخلت ورئيسة الممرضات إلى غرفة بلايك تحمل المناشف ووسائل التدليك.

ـ حسن سيد سايمور.. حان وقت التدليك.. اخلع النظارة واستدر.

أطلق تنهيدة قبل أن يضع النظارة على الطاولة الجانبية، ثم ما لبث أن انتزع سترة بيجامته عابساً، وتمدد على وجهه فوق الفراش.. سمَّر ظهره العريض مارسي في مكانها.. عصرت بعض السائل بحذر ثم بدأت بتدليك جانب من ظهره، وذراعه اليمنى أما السيدة كورلي فاهتمت بالجانب الآخر.

ـ هذا رائع سيدة كورلي.

ـ من المفترض أن يكون رائعاً.. حاول أن تنام.

أخذت تهدئه وتحادثه كأم حنون، وهي تدلك عضلاته بلمسات خبيرة. أما مارسي فكانت تدلك مؤخرة عنقه، لتدلك الأوتار المتصلبة

حتى استرخت.. كان شوقها إلى احتضانه بين ذراعيها أقوى من قدرتها على الاحتمال فارتدت مبتعدة بعدما اكتشفت أن فكرة تدليكه غير صائبة على أي حال.

تأوه: «لا تتوقفي الآن، سأدفع لك حتى تستمري، أعطيك راتب يوم كامل مقابل نصف ساعة أخرى».

رنّت ضحكة السيدة كورلي في الغرفة، وجلبت ابتسامة خفيفة إلى شفتي مارسي.

ـ استمر سيد سايمور.. لدي مرضى أهتم بهم. تعالي يا ممرضة.

رمت مارسي بنظرة متفهمة وتركت الغرفة.

راقبت مارسي من موقعها على الكرسي في الزاوية بلايك وهو يلبس سترة بيجامته قبل أن يستقر بين الأغطية لينام.. سمعته يتنهد من وقت لآخر.. لا شك أن التدليك أفاده، إذ لم يعد مضطرباً. كانت تعود عادة إلى الفندق بعدما يخلد إلى النوم، أما الليلة فأطالت المكوث لأنه قد يسترد بصره في أية لحظة.

ولكنها رغم شوقها إلى البقاء بقربه عندما تحين الساعة قررت الانتظار في الفندق.. سيبلغها كارل والطبيب هارمان بأي طارىء. لا تستطيع البقاء معه في الغرفة نفسها فيما كل ما في قلبها يصرخ مطالباً احتضانه وحبه كما أنها لا ترغب في أن تكون مسؤولة عن أية نكسة. ومع أنها تكره التفكير في بقائه أعمى، فقد أحست أنه يستحق أن يكون بمفرده، ما إن يغادر المستشفى حتى تقرر ما هي أفضل وسيلة تتخذها لتعود جزءاً من حياته مجدداً.. كانت غارقة في أفكارها بحيث لم تلاحظ أنه ترجل عن السرير يبحث عن عصاه.. متى استيقظ؟

عاد إلى الغرفة بعد دقيقة يحمل علبة مرطبات وتلحق به السيدة كورلي بحرارة:

ـ والآن سيد سايمور عليك أن تخلد إلى النوم، فمن الخطأ السهر.

ضحك للمرأة القصيرة: «لا بأس عليّ يا سيدتي».

فرقعت بلسانها توبخه، كان يقف على بعد أقدام من مارسي في صحة وعافية. بدا مظهره القاسي غريباً وقد ازداد بروزاً في ثياب النوم. كان يبدو على حاله ولكن عليه ملامح جديدة. كان في بعض الأحيان ينظر إليها فلا تستطيع التصديق أنه لا يراها.. ما من أحد يستطيع أن يعرف أنه أعمى. وحدقت مارسي إليه.. إنه يمضي فترة الانتظار بصبر مميز.. مع مضي الوقت كانت تراه أقل كآبة أما هي فكانت معنوياتها تحبط شيئاً فشيئاً.. ربما انتظر بلايك أكثر مما يجب ربما أرادت أن يعود بصره أكثر مما ينبغي ولكنها لا تريده مبصراً من أجل نفسها بل من أجله هو.

كانت السيدة كورلي تراقبه وهو يحتسي المرطب ثم لمّا أنهى شرابه أمرته بالعودة إلى فراشه، وحذرته من الخروج ثانية. تبعتها ضحكته الساخرة السعيدة وهي تخرج وهي ضحكة لم تسمع مثلها منذ زمن بعيد.

جلست في هدوء مطبق. مرت نصف ساعة كانت خلالها تستمع إلى أنفاسه المنتظمة.. لقد نام.

أمسكت حذاءها بيدها ثم سارت على أطراف قدميها حتى السرير لتنظر إليه.. كان مستلقياً على جنبه والوسادة مطوية تحت رأسه.. أرادت أن تمد أصابعها لترجع الخصلة البنية المتدلية من شعره على جبهته.. ترقرقت عيناها بالدمع من فرط حبها له. إنه شجاع وقوي.

تمتمت قبل أن تستدير: «أرجوك يا الله!»

ـ مارسي؟

شهقت وأدارت عينين دهشتين نحوه.. نهض ثم أنزل قدميه إلى الأرض.. كان نور برتقالي من المصباح الصغير يرمي ظلاله على قسماته المستقرة.

ـ أظننت حقاً أنني لن أعرف لمسة يديك أو أنني لن أعرف رائحتك؟ عندما يغازل الأعمى امرأته التي يحبها تستيقظ فيه حواسه الأخرى.. في الليلة التي قضيناها، تركت لمساتك الساحرة تأثيراً لا يمحى في رأسي.. وكم رغبت في الإحساس بلمساتك مرة أخرى.. تعالي إلى هنا مارسي.

أذهلتها كلماته وأربكتها.. إن كان يريد معاشرتها مرة أخرى لينبذها بعد ذلك، فلن تتحمل ذلك. وعصر الخوف قلبها، وتساقطت الدموع السخينة من عينيها:

ـ بلايك، أقسم بالله أنني لم أشأ أن تعرف بوجودي هنا.. سامحني.. لم أكن أقصد إيلامك بل أردت أن أكون قربك.. كان بمقدور الجميع رعايتك والتكلم معك سواي، لم أطق ذلك.. أنا آسفة.. سأذهب..

وابتلعت ريقها بشدة..

ـ لا تخافي مني حبيبتي.

انتزع حنانه مقاومتها كلها، وشاهدته يضم يديه بين ساقيه دليل هزيمة وعجز..

ـ هل أذيتك إلى درجة أن تخافي مني؟ هل يساعدني لو قلت لك إن الحياة بدونك لا تستحق الاستمرار سواء أكنت أعمى أم مبصراً؟ وإن التفكير في مواجهة لحظة أخرى من دون ضمك بين ذراعي هو أسوأ عشرات آلاف المرات من فقدان البصر؟

لم تستطع مارسي التنفس وبدا لها أنها انتظرت طوال حياتها هذه الكلمات.. تسللت آهة من بين شفتيها.

ـ أحبك مارسي، وأحتاج إليك أكثر مما أحتاج إلى الحياة نفسها.. إن أعطيتني فرصة أخرى كنت زوجاً حقيقياً لك. حبنا موجود بحد نفسه.. ولقد برهنت لي هذا.. ليس للوقت أو الظروف أي أثر

على ما نشعر به، وما طالما شعرنا به من حب متبادل.

قطعت مارسي المسافة القصيرة بينهما راكعة قربه لتضم رأسه إلى صدرها ولتهمس في شعره البني القاتم:

ـ أحبك حباً جماً. آه بلايك.. إن لم يرتدَّ إليك بصرك أرجُ منك ألا تدع هذا يؤثر فيك.. فأنا أحتاجك.. وسأفعل ما تريد. أعبدك.

أطبقت ذراعاه على قدّها النحيل، وتعلق بها للحظات أبدية.

ـ لم يعد يهمني شيء مارسي.. سامحيني لأنني رميت قسم زواجنا في وجهك، وأشكر الله على بقائك.

حضنته بقوة، غير قادرة على الكلام.. وتساءلت عما إذا كان من الممكن أن يموت المرء من فرط السعادة المتفجرة في أعماقه. واشتدت يده على شعرها:

ـ حينما تلاشى المخدر لم أفكر في أحد سواك ثم تذكرت أنك على متن الطائرة متجهة إلى لندن.. فشعرت بأن تلك اللحظة كانت أشد وطأ علي من اللحظة التي اكتشفت فيها أنني أعمى. كاد يفقدني صوابي مجرد التفكير في أن رجلاً آخر قد يفوز بحبك أو ينعم بعواطفك فتضرعت إلى الله أن تعودي إليّ مارسي.

داعبت عنقه ياقتها:

ـ لكنني لم أسافر.

اهتز جسده: «لقد قمت بتمثيلية مقنعة سيدة سايمور.. عندما قلت إنك موافقة على الطلاق أحسست بأن حكماً بالموت الدائم قد صدر بحقي».

ـ كذبت عليك لأنني كنت مضطرة إذ لم أستطع التفكير في حل آخر في ذلك الوقت. ولكني أعدك وعداً قاطعاً ألا أكذب عليك عمداً بعد اليوم.

عانقها بحب:

ـ لا تتركيني أبداً.. عندما شعرت بيديك على كتفي منذ قليل، خلتني أحلم.. فبعد تصرفي المقيت ذاك، خشيت أن أصدق أن دعواتي استجيبت.

جلست بين ذراعيه تنعم بدفئهما.

ـ لم أستطع تركك بلايك.. الحياة بدونك بلا طعم أو نكهة. لا أدعي أنني أعرف ما يشعر به المرء عندما يعرف أنه فقد بصره ولكنني أستطيع القول صادقة إنه ليس أسوأ من أن أعيش بدونك. في لقائنا الأول في المستشفى يوم طلبت مني العودة إلى بلادي لأنك لا ترغب في وجودي أحسست بأنني محكومة بأسوأ أنواع البؤس..

ـ سامحيني على ما كبدتك إياه من معاناة.

ـ ليس لدي ما أسامحك عليه لأنني أحبك.

ثم عانقها عناقاً جائعاً حنوناً دفعهما إلى أعماق أحضان الحب. رفعها بين ذراعيه ووضعها على السرير بقربه:

ـ ما إن يسمح لي الطبيب بمغادرة المستشفى حتى نسافر لنمضي مدة شهر كامل بل مدة أشهر عديدة عسل، لا أريد أن يشاركني فيك أحد إذ سأحتاج إلى وقت طويل حتى أصدق أن هذا يحدث لي حقاً.. لكن هذا حقيقة، وأنت حقيقية.. أليس كذلك؟ أنت حبيبتي الجميلة الخلابة إلى درجة الألم.

باتت غير قادرة على احتواء السعادة ولكنها ذكرت نفسها بأنهما في غرفة مستشفى.. وهي الآن على وشك أن تنسى كل شيء.

تمتمت بصوت أجش: «بلايك.. قد يدخل علينا أحد».

ـ أنا أدفع أجرة هذه الغرفة فإن أردت احتضان زوجتي، فهذا شأني أنا لا شأن أحد سواي.

تذكرت بلايك الذي تعرفه منذ زمن، بلايك الواثق من نفسه المغرور.

ـ انتظري فقط ريثما نرجع إلى البيت سيدة سايمور.

ضمته أكثر فأكثر: «أحبك عندما تناديني هكذا».

ـ مارسي، ما إن تصدر التهم رسمياً ضد غرانت والآخرين حتى نسافر إلى أي مكان تختارينه أنت.

ـ لا أريد إلا أن أستقر في المزرعة.

ـ المزرعة؟

رفع حاجبه، مظهراً الذهول والعجب.

ـ إنها أجمل مكان في العالم، أرجوك.. أرجوك لا تبعها.. لا أستطيع تحمل بيعها.

جلجلت قهقهة من حنجرته:

ـ آه! مارسي.. مارسي.. أنا لا أستحقك.

وضمها مجدداً. فهمست «لم تقول هذه الكلمات؟»

ـ نحيت عني أعظم قلق أشعر به. لقد تساءلت منذ البداية عما إذا كنت محقاً معك.

رفعت رأسها تنظر إليه: «بلايك ماذا تعني بقولك؟»

طأطأ رأسه يعانقها: «أنت لا تعرفين ما شعرت به عندما رأيتك أول مرة ولولا وجودك في مجتمع متمدن لخطفتك من غرفة استقبال أبي ولحملتك إلى مرتفعات نائية. وعندما انتقلنا إلى المزرعة بدوت لي سعيدة جداً ولكنني لم أجرؤ على التصديق وفي ظني أنك تتظاهرين بالسعادة من أجلي.. فلأضمك مارسي.. ولأحبك إلى آخر عمرنا».

***

تسللت أشعة الصباح البنفسجية من نافذة غرفة المستشفى حتى وصلت إلى السرير.. وأحست مارسي بدفء نور الصباح على وجهها وتحركت، لكنها كانت عالقة بين ذراعي زوجها.

ما إن فتحت عينيها حتى اكتشفت أن بلايك مستيقظ، يتلمس

قسمات وجهها.. في الطريقة التي ينظر فيها إليها شيء ما جديد لم تره في عينيه منذ فقد بصره، انحبست أنفاسها في حلقها.

ـ بلايك؟

همس: «لا تتحركي.. استلقي بلا حراك ودعيني أتأملك.. مارسي.. إن لم تكن عيناي تخدعانني فأنت ترتدين تنورة زرقاء، وبلوزة كحلية على ياقتها إطار أبيض.. هل أحلم؟»

امتزج القلق بعدم التصديق في صوته.

اغرورقت عينا مارسي بالدمع وهي تنظر إلى زوجها.

ـ أنت لا تحلم.. لقد ارتدّ إليك بصرك!

رفعت يدها إلى وجهه تتلمس جبينه بأصابعها:

ـ ومتى حدث هذا؟

ابتلعت ريقها تدعو الله ألا يكون ما يعيشانه حلماً.. تمتم يرفع نفسه ليجلس:

ـ لا أدري.. استفقت قبل قليل وأنا أرى ما حولي من خلال ضباب.. أغمضت عيني ثانية أتساءل عما يعنيه ذلك ولمَّا فتحتهما ثانية، شاهدت وجهك واضحاً كأشعة الشمس ولكن مشكلتي أن صورتك مطبوعة في ذهني وقلبي منذ زمن طويل.. ظننت بل افترضت... آه! مارسي هل أستطيع حقاً رؤيتك؟ يا زوجتي الحبيبة الجميلة!

جالت نظرته المشتاقة في كل حدب وصوب ورأى حالة شعرها وتبعثره.

ـ أتعرفين أن عينيك ساعة الإثارة تلمعان بنار قرمزية وأن شفتك السفلى ترتجف؟.

انحنى يعانقها ثم أردف:

ـ لقد اجترح إيمانك معجزة مارسي.

وارتسمت ابتسامة مشرقة على وجهها:

ـ قال الطبيب هارمان إن يداً ما دبرت حادثة وقوعنا في ذاك اليوم.

رفع لها يديها ولثم راحتيها بحنان وصل إلى قلبها.

ـ ما كان سيصيبني لو تخليت عني؟ ماذا لو سافرت إلى لندن منذ اليوم الأول على وصولك؟.

ضمها بين ذراعيه مرة أخرى.

ـ لاتتركيني أبداً، ولا تتوقفي يوماً عن حبي.

ـ صباح الخير سيد سايمور..

فاجأه صوت السيدة كورلي الرنان التي دخلت إلى الغرفة.

ـ إنه يوم جميل..

وتوقفت في منتصف الطريق، تقول شاهقة:

ـ سيد سايمور!

سحبت مارسي نفسها من بين ذراعي بلايك، ونهضت عن السرير، تحاول تمليس تنورتها المتجعدة وبلوزتها. وبدأ بلايك يضحك ضحكة ساحرة:

ـ إنه صباح رائع سيدة كورلي.. لم أكن أعرف أن عينيك زرقاوان.

ومضت عينا المرأة:

ـ إذن ارتد إليك بصرك؟ حسن نظراً لهذه الظروف.. لن أبلّغ عما رأيته.. لكن تذكر، أن الطبيب هارمان قادم بعد دقائق.. ولا تريد للرجل المسكين أن يصاب بنوبة قلبية.. ليس بعدما فعله من أجلك.

طوى يديه على صدره وابتسم لمارسي.

ـ لا.. سيدة كورلي.. لأنني سأصحب عروسي من المستشفى هذا الصباح لذا سأودعك الآن وأقدّم لك شكري لأنك اعتنيت بي كما لو كنت والدتي.

ابتسمت بخجل كطفلة صغيرة:

ـ أوه.. أغرب عن وجهي سيد سايمور.. إن أمثالك يسحرون الطير في وكره.. كن طيباً مع عروسك الجميلة هذه.. لقد وقفت كالحارس فوقك تراقبك وتتضرع إلى الله من أجلك.. لم تترك جانبك لحظة.. وهي من كانت ترعاك وتتحملك عندما كان يعجز الآخرون عن مساعدتك. في بلادي نقول إن لمثيلاتها موهبة الجنية الطيبة.

ـ وأية موهبة هي هذه سيدة كورلي؟

ـ قلب مخلص ثابت سيد سايمور.. وهذا أمر نادر حقاً..

أمسكت مارسي اليد التي مدها إليها عندما غادرت السيدة كورلي الغرفة.. وعادت إلى أحضانه إلى حيث تنتمي.

نظر إليها بشوق أسرها.

ـ مارسي أنت وحدك من أخرج رجلاً أعمى من أعماق الجحيم المظلم إلى النور لذا أريد أن أهبك ما في الدنيا مقابل ذلك.

تحولت عيناها إلى جمر قرمزي اللون.

ـ لقد وهبتني الدنيا عندما طلبت يدي للزواج، ولكنني أريد أن أنسى العالم فترة وأكون معك وحدي. كنت أفكر في إنجاب طفل.. وأريد أن يحدث هذا بسرعة.

دفعتها أصوات خارج الباب للابتعاد عنه، لكنه أمسك بوجهها المتورد بين يديه:

ـ هذا ما أملت سماعه سيدة سايمور.. لأنني لن أتركك تبتعدين لحظة عن ذراعي.

* * *

www.liilas.com
dodde al 7aloo